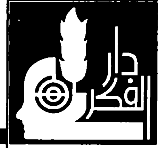
طلاب عمل لا طلاب علم



محمد الخيمي







التخطيط مفتاح النجاح
2014 = 1435

١ - أسست عام ١٩٥٧ (١٣٧٦هـ)

٢ - رسالتها :

العمل في مجال الإبداع الفكري والثقافي: من خلال نشر الكتب الورقية والإلكترونية بالوسائط المتعددة وأية أوعية أخرى للكلمة، وتوزيعها، والترويج لها بالوسائل الحديثة، بغية تحقيق ربح تجاري مجزٍ يعينها على تحقيق رسالتها ورؤاها الثقافية.

٣ - رؤيتها :

- تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل أفضل.
- كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار وضرورات التعدد.
- تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
- مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي في المجتمع.
- إطلاق طاقات الطفولة، سبيل الارتقاء، واطراد التقدم الإنساني.
- الاستعانة بنخبة من المفكرين، إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير والأبحاث والترجمة.
- إعداد خطط النشر، والإعلان عنها: فصلياً وسنوياً ولآماد أطول.

٤ - خدماتها :

- **بنك القارئ النهم (الأول من نوعه في الوطن العربي) .**
- **تمنح جائزة سنوية للرواية ، وتكرم مؤلفيها وقراءها .**
- **ريادة في مجال النشر الألكتروني :**

- أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربي على الانترنت: www.fikr.com
- موقع (فرات) لتجارة الكتب والبرامج الألكترونية : www.furat.com
- موقع تفاعلي رائد للأطفال (عالم زمزم) : www.zamzamworld.com

- **إشراف مباشر على موقع:**

- الدكتور وهبة الزحيلي: www.zuhayli.com

٥ - منشوراتها : تجاوزت مطلع عام ٢٠١٤م(٢٤٠٠) عنواناً، تغطي معظم فروع المعرفة .

٦ - جوائزها : حازت على جائزة أفضل ناشر عربي للعام ٢٠٠٢ ، من الهيئة المصرية العامة للكتاب.

نالت أربع جوائز من مؤسسة التقدم العلمي في الكويت ، عن كتبها :

- الجراحة التنظيرية : مينيرو-ج وآخرين ، ٢٠٠٠م
- هروبي إلى الحرية : علي عزت بيغوفتش ٢٠٠٢م
- موجز تاريخ الكون : د. هاني رزق ٢٠٠٣م
- الجينوم البشري : د. هاني رزق ٢٠٠٨م

للمزيد من المعلومات زوروا موقعنا على الانترنت: www.fikr.com

طلاب عمل لا طلاب علم / محمد الخيمي.- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠١٣.- ١٨٤ص؛ ٢٠سم.

ISBN:978-9933-10-536-5

١- ٢١٨.١ خ ي م ط ٢- العنوان ٣- الخيمي

مكتبة الأسد

محمد الخيمي

طلاب عمل ...
لا طلاب علم





التخطيط مفتاح النجاح

دار الفكـــر - دمشـــق
☎ ٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

دار الفكر المعاصر - بيروت
☎ ٨٦٠٧٣٩ ١ ٠٠٩٦١

http:/www.fikr.com - e-mail:fikr@fikr.net

طلاب عمل لا طلاب علم

تأليف: محمد الخيمي

الرقم الاصطلاحي: ٢٣٩٦,٠٣١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-536-5

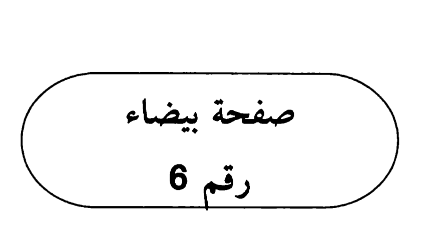
الرقم الموضوعي: ٢١٨ (قضايا إسلامية اجتماعية وأخلاقية)

١٨٤ ص، ١٤ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى ١٤٣٥هـ= ٢٠١٤م

للتواصل مع المؤلف
mhdkhiyami@yahoo.com

المحتوى


صفحة بيضاء
رقم 6

طلاب عمل.. لا طلاب علم

"لا طَريق أقرب في الوُصُول إِلَى الله من العلوم الشَّرْعِيَّة المنزَّهة من أَن يشوبها أدنى شوب من المطامع الدُّنْيَوِيَّة"

شيخ الإسلام
ابن حجر الهيتمي



المقدمة

كلمة بين يدي العنوان

طلاب عمل لا طلاب علم....!!

الحمد لله، وصلاة وسلاماً على سيدنا محمد وآله وصحبه. وبعد،

فقد يبدو هذا العنوان مفاجئاً، بل قد يكون صادماً.

ولماذا لا نكون طلاب علم، والقرآن والسنة ناطقان بالثناء على العلم، وعلى المشتغلين بالعلم؟

ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر ٣٥/٢٨]،

وقال: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١]؟

ألم يقل سيد الخلق ﷺ: العلماء ورثة الأنبياء[(١)]؟

ألم يقل: «من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان بالبحر»[(٢)]

فأيُّ شيء جناه طلاب العلم بعد هذا الثناء كي تقترن بهم تلك الـ(لا) النافية!؟

منذ نحو ألف عام كتب الإمام الغزالي[(٣)] كتابه العظيم (إحياء علوم الدين)، وعقد أول أبواب الكتاب لموضوع العلم، وذكر هناك فصلاً ترجم له بعنوان: (ما بُدِّل من ألفاظ العلوم)، ومما كتبه في ذلك الفصل:

«لقد كان اسم الفِقه يطلق في العصر الأول مطلقاً على علم الآخرة، ومعرفة دقائق النفوس ومفسدات

---

(١) سنن أبي داوود، رقم (٣٦٤١)؛ وسنن الترمذي، رقم (٢٦٨٢).

(٢) سنن أبي داوود، رقم (٣٦٤١)؛ ومسند الإمام أحمد، رقم (٢١٧١٥).

(٣) سترد ترجمته، ص٦٠

الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب، ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٩/ ١٢٢]، وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التَّجرُّد له على الدوام يقسِّي القلب، وينزع الخشية، كما نشاهد الآن من المتجردين له (يعني في القرن الرابع).

وقد سأل فرقدُ السبَخيُّ الحسنَ البصري عن شيء، فأجابه، فقال: الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن رحمه الله: «ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكافّ نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم»، ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى»[1]

(١) الإحياء، ١/ ٣٢

وكتب ابن الجوزي[1] يصف حال قوم صار العلم عندهم صناعة، فقال:

«ونعوذ بالله من سبيل الرَّعاع[2]، يتَسمَّون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبرون على الناس بما لا يعملون، ويأخذون عَرَض الأدنى وقد نهوا عما يأخذون، غلبتهم طباعهم وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم أخس حالاً من العوام الذين يجهلون ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٣٠/ ٧]»[3]

هل أدركت الآن -أخي- لماذا كان العنوان "طلاب عمل، لا طلاب علم"؟

إنّه تشوُّهٌ قديمٌ ذاك الذي لحق بمصطلح العلم والفقه، وليس طارئاً جديداً، وليس هذاَ العنوان بِدْعاً فيما كُتِب؛ إذ ليس بين العلم الذي شاع بين كثير من الطلبة الآن،

(١) سترد ترجمته، ص٨٢.
(٢) الرَّعاع: هم سَفلَة الناس وأرذالهم.
(٣) صيد الخاطر، ص٣٦٢

وبين العلم كما كان عليه في العصر الأول، ليس بينهما إلا الاسم دون المعنى.

إنّ العلم الذي أثنى عليه ربنا سبحانه، وأثنى عليه سيدنا محمد ﷺ، وصار صاحبه وارثاً للنبوة، وصارت الملائكة، والطير في السماء، والحيتان في الماء، تستغفر لحامله، هو ذاك العلم الذي يثمر في حامله عملاً، إنه ذاك العلم الذي يتخلَّل قلبَ المتعلِّم، حتى يصير كلُّ جزء فيه متعرِّفاً خالقَه، ساجداً له، وخاضعاً لأمره، إنّه ذاك العلم الذي به يتعرَّف حاملُه وظيفَتَه ومهمته في هذه الدنيا، فلا يزال العلم يحدوه ويسدِّده حتى يبلغ الهدف الذي لأجله -ولأجله فقط- قد خُلِق، وكلَّما ازداد علماً ازداد تنائياً عن كل ما يبعده عن ذلك الهدف، وازداد طيَّاً لمسافات القرب منه سبحانه.

وأمَّا العلم الذي يُبتغى لطلب المنزلة في نفوس الناس، وللتزيُّن بالألقاب، ولارتقاء المناصب والمنابر ومنصَّات التدريس، ولجمْع الناس، وتحصيل الوظائف، وجمع الدراهم والدنانير، والجلوس على كراسي الوعظ والإفتاء، وجذب الفضائيات، والإطلال من

الشاشات. وغيره وغيره مما تُطلب به الدنيا؛ أقول: إنّ هذا النوع من العلوم ليس هو ذاك العلم الذي أثنى الله عليه، وأثنى عليه رسوله ﷺ. لا، ليس هو، إنه شيء آخر، إنه عَرَض من أعراض الحياة الدنيا، ومَتاع من متاعها، وأما الآخرة وإرضاء الله، فليس ذلك العلم منه بسبيل.

إنه علم من حيث الصورة، وأما من حيث المعنى، فهو جهل، دونه كل جهل.

إنه جهل ينحطّ بصاحبه إلى رتبة العجماوات، إنه ذلك العلم الذي ضرب الله المثل لصاحبه بقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ٧/١٧٦]، وبقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ [الجمعة: ٦٢/٥].

ذلك العلم هو نفسه الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء، وتماروا به السفهاء، ولا لتخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[1]

---

(١) رواه أبو داوود وابن ماجه.

هو نفسه الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من تعلّم علماً مما يبتغى به وجه الله، لا يتعلمه إلا ليصيب عرَضَاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[١]

وقال سهل بن عبد الله التستري: «العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به»[٢]

وقال سفيان الثوري[٣]: «إنما يُطلب العلم ليُتَّقى الله به، ومن ثَم فضِّل، ولولا ذاك لكان كسائر الأشياء»[٤]

نعم.

إنه دنيا

إنه متاع كسائر متاع الدنيا.

بل هو أكثر متاع الدنيا فتنة، وأكثرها استحلاءً في النفس.

---

(١) رواه أبو داوود وأحمد.

(٢) إحياء علوم الدين، ١/ ٦١

(٣) سترد ترجمته، ص١٠٨

(٤) حلية الأولياء: الأصبهاني، ٦/ ٣٦٢

يقول سفيان الثوري رحمه الله: «فتنة الحديث أشدُّ من فتنة الذهب والفضة»[١]

وقال الغزالي: «التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد، أعظم لذَّةً من كلِّ تنعُّمٍ في الدنيا، فمن أجاب شهوته، فهو من أبناء الدنيا»[٢]

إنه ذاك الداء الأدوأ الذي قصم ظهور الرجال؛ لِما فيه من طلب للجاه، وعشق للشهرة، وحبٍّ للظهور، وغيره من الأمراض الباطنة الخفية، التي تختبئ خلف أستار سميكة جداً من حلاوة المنطق، وحسن المظهر، وكثرة المحفوظات، وتعدُّد الشهادات، وكثرة الأتباع والمعتقِدين والمعجَبين، فلا يخترق تلك الأستار، ولا يشخِّص تلك الأدواء إلا ساعةُ صفاء وصدْق مع الذات، يحاسب المرءُ فيها نفسه، ويتفكَّر في علمه؛ ماذا أراد به؟

إنّه العلم الذي لا يحبّه الله ولا يرضاه، ولا يحبّه رسوله ﷺ ولا يرضاه.

(١) حلية الأولياء، ٦/ ٣٦٣
(٢) إحياء علوم الدين، ١/ ٦١

وهو نفسه العلم الذي كُتِب هذا الكتابُ ليعرِّيَه من لبوسه، وليكشف عليه ستره، وليفضحه أمام كل مخدوع به.

إن هذا الكتاب كتب ليصرخ في وجه كل مفتون بذلك العلم من الطلبة قائلاً:

كن طالب عمل لا طالب علم

ولكن. لماذا الآن؟

إن المشكلة التي تطرحها هذه الأوراق، ليست أمراً جديداً، فكُتُب التزكية والسلوك زاخرة بتلك المعاني، فيها ذكر الأمراض، ووصف الأعراض، وبيان لسبل الاستشفاء.

ولكنّ الثقافة السائدة في العصر الذي نعيشه الآن، صارت -وبشكل متزايد- تفاقم من حجم تلك المشكلة، وتعمق من أثرها -ومن ثَّم- تزيد من ضرورة التعرض لها من جديد، ولفت الأنظار إليها تارةً أخرى.

فمن إغراءات الشهرة الواسعة التي أمَّنتها ثورة الاتصالات، إلى فضائيات دعوية متخصِّصة، وأضواء خاطفة للأبصار تسلَّط على كثير من طلبة العلم الذين

أرادوا أن يطيروا أ قبل أن يُريِّشوا، إلى رؤوس أموال وعقود تجارية (إن لم تكن احتكارية) توظَّف في سوق الدعوة الذي لم يَعُدْ أخروياً دائماً، إلى تصنيع للنجوم، وتسويق وترويج للمنتج الدعوي الإسلامي بأساليب تشبه أساليب التسويق التجاري.

إنها أجواء غريبة جداً على العمل الدعوي التقليدي، الذي اعتاد أن يكون الأصلُ فيه السرَّ لا العَلَن، والبذْل لا الأخذ، والخمول لا الشهرة.

وفي ظلِّ هذه الثقافة الجديدة، لم تعد المعايير التي كانت بالأمس تضبط وتتحكم بأوجه النشاط الاقتصادي، لم تعد قاصرة فقط على الاقتصاد والتنمية البشرية، بل صارت تنسحب في عصرنا حتى على العمل الإسلامي الفكري والدعوي.

ووفقاً لهذه المعايير، فإن تصنيف المرء كقارئ، صار يتحدَّد بمقدار عدد الكتب والكلمات التي ينجزها في وحدة الزمن.

وتصنيفه كعالم يتحدَّد بمقدار ما يحمله من إجازات وألقاب علمية وأسانيد عالية.

وتصنيفه كداعية يتحدد بالكاريزما التي يملكها، وبمقدار عدد طلبته الذين يحضرون درسه، وعدد زوار موقعه الإلكتروني، والمعجبين بتغريداته على التويتر، ومنشوراته على الفيس بوك، وبمقدار الدولارات التي تثمَّن بها محاضراته وساعاته التلفازية، وغيرها من النشاطات (الدعوية). وهكذا دوالَيْك.

وأكثر هذه أيضاً معاييرُ جديدة على العمل الإسلامي لم يألفها العاملون فيه من قبل، ولم يألفوا ما فيها من مزالق.

ومع أنَّ أكثر هذه المعايير والتقنيات مهمٌّ ومفيد في منْهَجَة العمل الدعوي وبرمجته وتوسيع أثره، ولكنها تضخمت وتضخَّمت، حتى طَغت على العمل الدعوي بأسره، وكأن الدعوة إلى الله لم تعد شيئاً سواها

وكأنَّ الإنسان إنما هو بظاهره، وكأنَّ الله إنما ينظر من الإنسان إلى صورته ولسانه، لا إلى باطنه وقلبه، وكأن العمل يثقل في الميزان بمقدارِ وِزان الألقاب، وكثرة المعجبين، لا بمقدار الصدق والإخلاص.

كل هذا جعل التعرُّض لهذه المشكلة الآن أكثر إلحاحاً من ذي قبل.

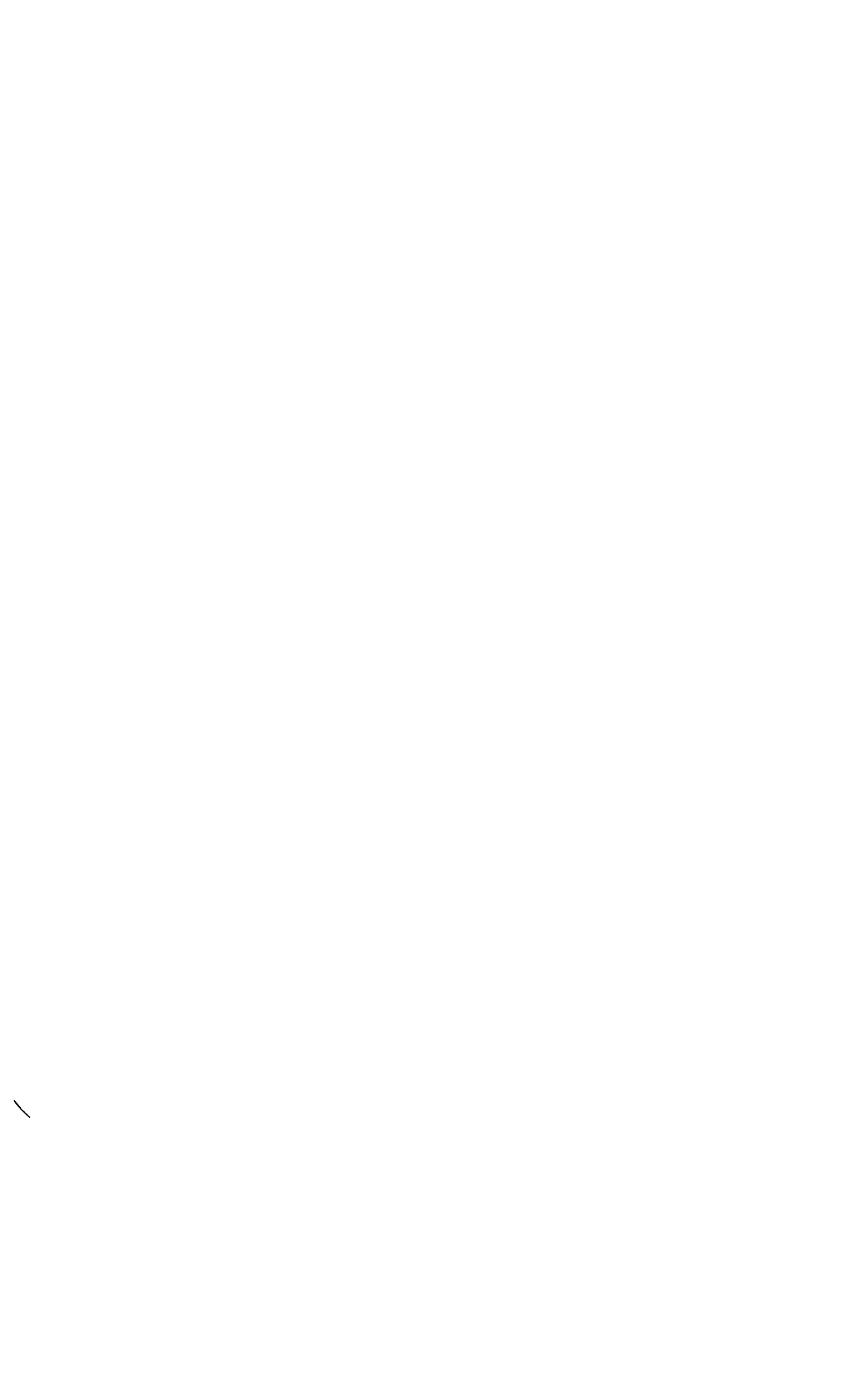
وهذه الأوراق التي أنت مقبل على تصفُّحها يا أيها القارئ -رزقني الله وإياك حسن العلم والعمل- هي في هذه المعاني، وهي عبارة عن مقالات قد تجد فيها تكراراً للمعنى نفسه، ولكن بعبارات شتى، أو قلْ: إن فيها تركيزاً على مرض واحد، ولكن بأعراض شتَّى.

وليس ما فيها جديداً -كما سبق ذكره- وإنما الجديد في هذه الأوراق هو إعادة الوصف لأدواء قديمة وأصيلة في نفوس بني آدم، ولكن بأعراض جديدةٍ كجِدَّة وسائل الاتصال وأساليب التعليم وطرائق المعاش.

وأنا فيما ستقرؤه -أيها القارئ الكريم- عالة على أطباء شخصوا الداء ووصفوا الدواء قبلي، وإنما قصدت -أيها الحبيب- أن أريحك من عناء تقليب أوراق لا يكاد كثير من الناس يعرفونها الآن، لأستخرج لنفسي ولك، ما أسأل الله أن يجعل فيه عافية بواطننا، ويؤهلني وإياك به لرتبة الوراثة الحقيقية لسيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

هذا، وقد تقصّدت أن أطيل النفس قليلاً في ترجمة أكثر من وقع النقل عنهم من الأعلام، لأنّ في التعرّض لذكر تلك الهامات بركةً للكاتب وللكتاب وللقارئ، وأوَّل بركات ذكرهم، ترويح القلب بأخبارهم، والتأسي بحالهم ومقالهم، وقد قال سفيان بن عيينة رحمه الله: «عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة»، وقال محمد بن يونس رحمه الله: «ما رأيت للقلب أنفعَ من ذكر الصالحين».

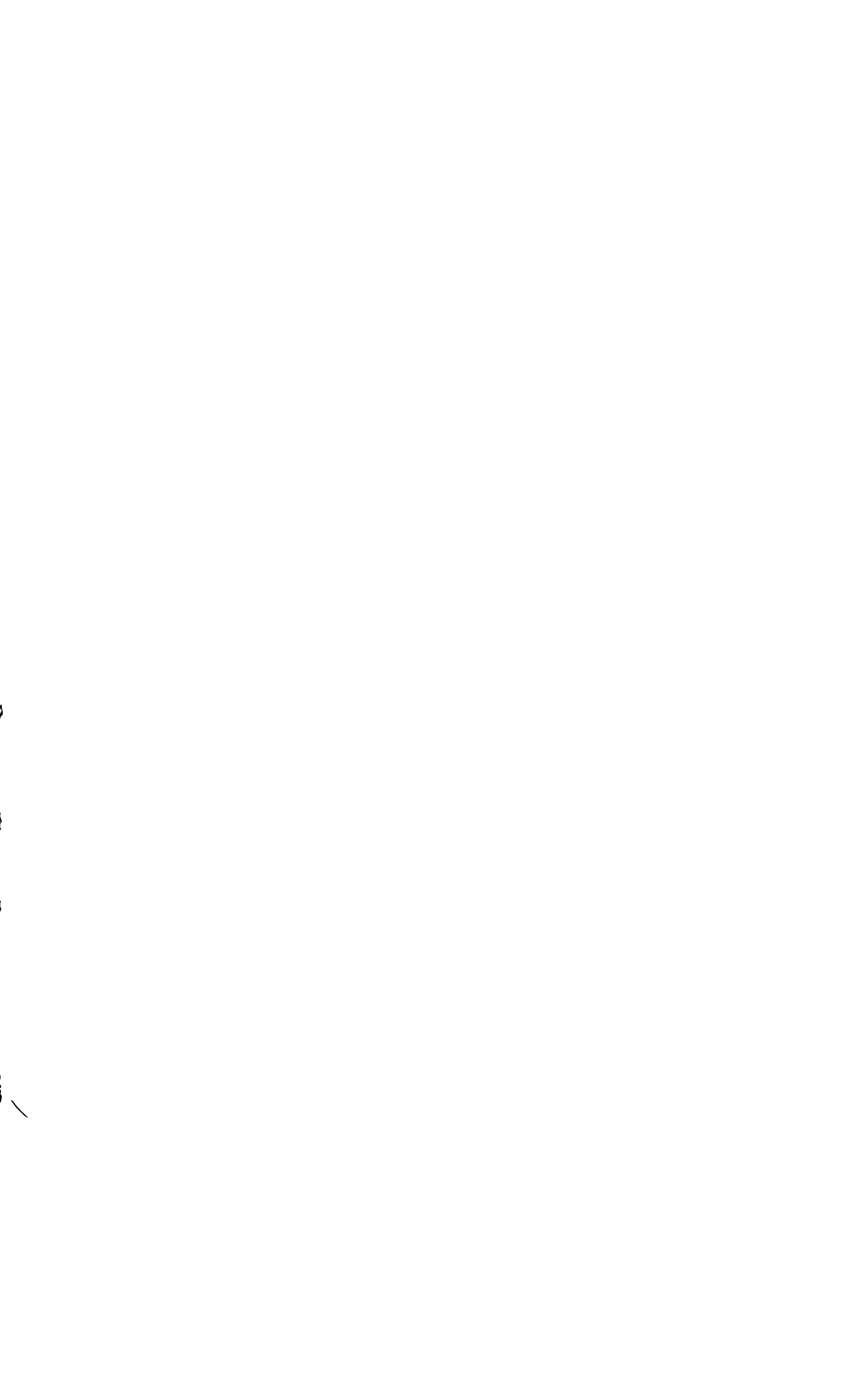
ومِنَ الله نستنزل المدَدَ والعون، ليصير هذا الذي نكتب ونقرأ حاملاً لنا على العمل بعد العلم، إنه سبحانه خير مسؤول، وهو المستعان.



تنبيه

العلماء والدعاة هم بركات الله في أرضه، وهم أعلى وأسمى من أن ينالهم الثَّلْب.

وكل ما تراه في هذا الكتاب من انتقاد لمن يوصفون بكونهم دعاة أو شيوخاً أو نحو ذلك، فالمقصود فيه من ادَّعى لنفسه تلك الأوصاف من غير أن يكون خليقاً بها، ولذلك تكرَّر وضع تلك الألقاب ضمن قوسين حيث كان السياق يدل على ذلك.



البداية القديمة الجديدة

درج كثير ممن صنَّف في الحديث، ونحوه من العلوم الإسلامية، أن يفتتح حديثه بالكلام على النية والإخلاص، وغالباً ما يَشْرُف أول الكتاب بالحديث المشهور، الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن سيدنا رسول الله ﷺ:

«إنما الأعمال بالنِّيَّات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»(١)

والكلام على النية كلام معروف ومحفوظ لكل

(١) هذا الحديث هو أول حديث في صحيح البخاري.

المشتغلين بالعلم الشرعي؛ لِما ذكرته من كثرة التعرُّض له، وتقديمه على غيره من المباحث. ومع ذلك، فلا يستغني عن استحضار هذا الموضوع كتاب، بل لا ينبغي أن يستغني عن استحضاره كل مُصبِح ومُمسٍ من الخلق في مملكة الله سبحانه.

ولكن أكثر ما يحتاج إلى ضبط وتحرٍّ وتيقّظٍ من أبواب الإخلاص، هو ما يكون في باب العلم الشرعي، وكلّ ما فيه انتصاب للخلق في محلِّ القدوة والوراثة النبوية.

وذلك أنه لا يوجد باب من أبواب الطاعات يحتال له إبليس بكل حيلة، ويستنفر فيه كل وسيلة، كهذا الباب؛ إذ الخصم هنا ليس بجاهل، بل هو متعلم وخبير بضروب الوساوس التي ينفذ منها الشيطان على الخلق، ومن ثَم فلا ينفع مع هذا الصنف ما ينفع مع غيره من الناس، بل يحتاج إلى ضرب من الاحتيال، خفيٍّ جداً، ودقيق جداً، لا يكاد يتميز فيه الإخلاص من الرياء، والصدق من الادِّعاء، إلا للناقد البصير، والمتيقِّظ المتوثِّب، ولذلك شبَّه رسول الله ﷺ هذا النوع من الاحتيال بدبيب النمل، فقال رسول الله ﷺ:

«إنَّ مِن الشِّرْك ما هو أَخفى من دَبِيبِ النَّمْلِ على الصَّفا»[1]

فربما نهض طالب العلم والداعية إلى وعظ الناس وتعليمهمْ في الجامع أو الجامعة أو الفضائيات، فأمرهم ونهاهم، فانتفع به الخلق، وأدَّاهم انتفاعهم به إلى أن عظّموه وتبركوا به، وخلعوا عليه الألقاب، وبالغوا في الثناء عليه، وتنافسوا في خدمته والتقرب منه.

فما لم يكن الداعية وطالب العلم من الموفَّقين، فمتى يتنبَّه على أن هذا قد لا يكون إلا مدخلاً من مداخل الشيطان؟

وكيف يتبيَّن أن كل ما سبق من تعليم وخطابة ووعظ، وما رافق ذلك من علامات الانتفاع والقبول، قد لا يكون في حقيقته إلا خدمة للدنيا وشهواتها، وإن كان من حيث الصورة عملاً من أعمال الآخرة بامتياز؟

وكم مِنْ طلبة العلم مَنْ يتفانى في تحصيل العلم، ومن ثَمَّ تبوَّأ مناصب التعليم والتدريس، وإبليس يلبِّس

(١) رواه المقدسي في (الأحاديث المختارة)، رقم ٦٣، وهو بلفظ قريب عند أحمد في المسند.

عليه نيَّته، ويوهمه أنه إنما يفعل ذلك خدمة للدين وأهله، وأما المقصد الحقيقي، فهو التَّمتُّع بجاه المنصب، ولِيقال: دكتور وأستاذ في جامعة كذا، أو خطيب مسجد كذا، أو هو الشخصية الإعلامية اللامعة في الفضائيات، أو هو المرجع الشرعي الأول في مكان كذا، أو صاحب الكتب الأكثر مبيعاً. ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية.

وكم من القرَّاء والمادحين، من إذا قرؤوا أو أنشدوا بكَوا وأبكَوا، ولم يخالج من يسمعهم شكٌّ بأنّ هذا كلَّه من آثار الصدق في حب الله وحب رسوله ﷺ، فعظَّمهم الناس لذلك، وأكرموهم، وأسمعوهم من الثناء ما تقَرّ به العين، فلبَّس عليهم إبليس بأن ذلك كلَّه دليل على أنهم أصحاب رسالة صادقة، وأنهم بعملهم هذا إنما يقصدون وجه الله، ويتفانون في حُبِّ رسوله ﷺ، ولكنهم في حقيقة الحال يطلبون بذلك الشهرة والمال وانتشار الصِّيت، والتقدُّم على الأقران والمنافسين.

وهكذا، ينتفع الناس بهؤلاء، ويبوءُون هم بالخُسران لعدم تمام الإخلاص.

يقول الشيخ الشعراني

«سمعت سيدي علياً الخوّاص رحمه الله[1] يقول في معنى حديث «إن الله تعالى ليؤيِّد هذا الدين بالرجل الفاجر»[2]: هذا الرجل يتعلم العلم رياءً وسمعةً، فيعلِّم الناس أمور دينهم ويفقِّههم ويحرسهم وينصر الدين إذا ضعف جانبه، ثم يدخله الله تعالى بعد ذلك النار لعدم إخلاصه»[3]

❖ من هو عبد الوهاب الشعراني؟

الإمام العابد، الزاهد الفقيه المحدِّث، الجامع بين العلم والعمل، وصاحب المنهج الفريد في تربية السالكين إلى الله، معظِّمٌ للسنّة، مجانب للبدعة، شديد الورع، متخلِّق بأخلاق النبوة، أسسَ زاوية صارت من أشهر مدارس العصر في التربية والسلوك، يجتمع فيها طلبة العلم وأصحاب الحاجات والأمراء والمجاذيب، وله مصنفات في علوم شتى، ومنها علم السلوك، أخذ نفسه بكل ما سطره فيها، فكانت كتبه ترجمة ناطقة لسلوكه، يشهد بذلك الخَلْق الذين كانوا إذا رأوه يسير في طريق، تدفقوا عليه من كل حدب وصوب، حتى اليهود والنصارى، ومن كلامه:

(١) سترد ترجمته، ص٣٥

(٢) رواه البخاري، رقم (٣٠٦٢).

(٣) لواقح الأنوار القدسية، ص ١٤

«مما أنعم الله به علي تقديم الأهمّ فالمهم مذ كنت صغيراً إلى وقتي هذا، ولذلك لم أعول قط على علم دون عمل، ولا على نافلة قبل العمل على إكمال الفريضة».

«ومما أنعم الله علي عدم خروجي من بيتي إلا إذا علمت من نفسي، بإذن الله، القدرة على هذه الثلاث الخصال: تحمل الأذى عن الناس، وتحمل الأذى منهم، وجلب الراحة لهم».

■ ترجمة مقتبسة من (شذرات الذهب)؛ ومن كتابه (لطائف المنن).

ولا يفيد هنا أن يكثر هذا الإنسان من قوله: «عملي هذا لله»، و«نيَّتي فيه له سبحانه»؛ لأنّ النية لا يتم تصنيعها بمجرَّد التلفُّظ، ولو اقترن ذلك بإمرار الأمر المنويّ على القلب، بل النية ميل قلبي قويٌّ إلى الأمر المنويِّ، يرافقه علامات وأعراض يعرفها من امتحنها

يقول الإمام الغزالي:

«اعلم أن الجاهل يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها، مع قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله: «نويت أن أدرس لله»، أو: «آكل لله»، ويظن ذلك نية، وهيهات، فذلك حديث نفس، وحديث لسان وفكر، أو انتقال من خاطر إلى خاطر، والنية بمعزل من جميع ذلك، وإنما النية

انبعاث النفس وتوجُّهها وميلها إلى ما ظهر لها أن فيه غرضها، إما عاجلاً وإما آجلاً.

والميل إذا لم يكن، لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرَّد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: «نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه»، أو قول الفارغ: «نويت أن أعشق فلاناً وأحبَّه وأعظّمه بقلبي»، فذلك محال، بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجّهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه»[1]

ولهذا، كان بعض السلف -إذا أراد العمل- ربما استعصت عليه النية الصالحة أياماً، وهو يؤخر العمل بانتظار أن تستقيم له نية لله تعالى.

قال يوسف بن أسباط: «تخليص النية من فسادها أشدُّ على العاملين من طول الاجتهاد».

وكان طاووس* لا يحدِّث إلا بنية، وكان يُسأل أن يحدِّث عن رسول الله ﷺ، فلا يحدِّث، فقيل له في ذلك، فقال: أفتحبُّون أن أحدث بغير نية؟ إذا حضرتني نية فعلت.

(١) إحياء علوم الدين، ٤/ ٣٧٣.

وقيل له مَرَّة: ادع لنا، فأبى، وقال: حتى أجد نية.

❖ من هو طاووس بن كيسان؟

الفارسي الفقيه، المحدِّث القُدوةُ، عالِمُ اليمن، من سادات التابعين، وأكبر تلامذة حَبْرِ الأمة ابن عباس، ومع هذا العلم الجم الذي سارت به الركبان، فما كان شيء أيسر على لسانه من قول: "لا أدري"، لما لا يدري، حتى قال حَنْظلة بن أبي سفيان (أحد تلامذته): ما رأيت عالِماً قطُّ يقول: لا أدري، أكثرَ مِنْ طاووس.

كثير العبادة، وفي هذا روي عنه أنه جاءَ فِي السّحر يطلب رجلاً، فقالوا: هو نائمٌ، فتعجب من ذلك، وقال: «ما كنت أرى أَن أحداً ينامُ في السَّحَرِ».

ورآه مُجَاهِدٌ (أحد أصحابه) مرة في منامه، فقال له: «رأيتك يا أبا عبد الرَّحْمن تُصلِّي في الكعبة، والنَّبِيُّ ﷺ على بابها يقول لك: «اكشِفْ قناعك، وبَيِّنْ قراءتك»، فكره طاووس أن يحدث مجاهد بذلك أمام الناس، وقال له: «اسْكُتْ، لا يَسْمَعْ هذا منك أحد».

ما عرف عنه أنّه كان يقبل صِلات الأمراء -مع تقديمهم له- ولا يحب الدخول عليهم، ولا يخضع لهم.

ووقع له مرة أن أمير اليمن محمد بن يوسف الثقفي (أخا الحجاج)، ألقى عليه طيلساناً، وهو يصلي، فلم يزل يُحرِّك كتِفَيه حتى ألقى عنه الطَّيلسان، فغضب الأمير، وعتب عليه بعض من حضر ذلك، وقال له. والله إن كنت لَغنياً أن تغضبه

علينا، لو أخذت الطَّيلسَانَ فبعته، وأعطيت ثمنَهُ المساكينَ، فقال: «نَعَمْ، لَوْلا أَنْ يقال من بعدي: قد أخذ طاووس من الأمير».

فانظر كيف أعرض عن قبول الهدية المشروعة، خشية أن يصير ذلك سنَّة متَّبعة لمن بعده، ممن قد يستهويهم حب الجاه والرغبة في الدنيا، فيقولون: هذا طاووس -وهو مَن هو- قَبِل الصِّلَة من الأمراء، فما بالنا لا نقبلها؟

حجّ أربعين حَجَّةً، وفي حجته الأخيرة كان موته.

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء)؛ و(الطبقات الكبرى) لابن سعد.

وقال سفيان الثوري: «ما عالجت شيئاً أشدَّ علي من نيتي»[1]

ويقول الشيخ الشعراني ناصحاً لطالب العلم، ومحذِّراً من مزلق من المزالق التي يهوي فيها كثير من الطلبة:

«فإياك يا أخي والغلط، فإن الناقد بصير، وقد كثر في هذا الزمان أقوام لا يعملون بعلمهم، وإذا نازعهم إنسان في دعواهم في قولهم: (نحن من أهل العلم)، استدلوا بما جاء في فضل طلب العلم مطلقاً من غير شرط إخلاص، فيقال لمثل هؤلاء: فأين الآيات والأخبار

(١) جامع العلوم والحكم، ص١٣

والآثار الواردة في حق من لم يعمل بعلمه ولم يخلص؟ فلا تغالط يا أخي وتدَّعِ الإخلاص في علمك وعملك من غير تفتيش؛ فإنه غشّ»[1]

ولسائل أن يسأل: فكيف أفتش في نيتي؟ وكيف أميز ما كان خالصاً لله من الأعمال، وبين ما كان شهوة من شهوات النفس، وتلبيساً من تلبيسات إبليس؟

يجيبنا عن هذا السؤال الشيخ الشعراني أيضاً، في كلام ينقله عن شيخه الشيخ علي الخوَّاص*، فيقول رحمه الله:

«وأما أمثالنا، فربما يُظهِر الواحد منا أعمالَه رياء وسمعة، وتلبِّس عليه نفسُه وتقول له: «أنت بحمد الله من المخلصين، وإنما تُظهر هذه العبادة ليقتدي بك الناس»، فينبغي لمثل هذا أن يمتحن نفسه بما لو جاء أحد يفعل ذلك الخير وتنقاد الناس له مثله، أو أكثر منه، فإن انشرح لذلك فهو مخلص، وإن انقبض خاطره، فهو مُراءٍ، ولو أنه كان مخلصاً لفرح بذلك أشدَّ الفرح، أنْ قيَّض الله تعالى له من كفاه المؤونة.

(١) لواقح الأنوار القدسية، ص١٤

ثم إن قالت له نفسه: إنما تشوَّشْتَ لفوات الخير العظيم الذي كان يحصل لك من حيث هو خير، فليقل لها إني معتمد على فضل الله، لا على الأعمال، فإن دخلت الجنة، فإنما هو برحمة الله تعالى لا بعملي.

فينبغي للعبد ألا يصغي لدعوى نفسه في الإخلاص، وليمتحنِ الشيخُ أو المدرسُ نفسه بما إذا فرَّت جماعته كلُّهم منه إلى شخص من أقرانه، وبقي وحده، لا يجد أحداً يتمشيخ عليه، فإن انشرح لذلك فهو مخلص، وإن حصل في نفسه حزازة، فالواجب عليه أن يتخذ له شيخاً يخرجه من ظلمات الرياء، وإلا مات عاصياً، وذهب إلى الآخرة صِفْر اليدين»[1]

❖ من هو الشيخ علي الخوَّاص؟

من أكابر الأولياء والربَّانيين، كان أميَّاً، ولكنَّه -مع ذلك- كان أستاذاً لفحول علماء عصره، كناصر الدين اللَّقاني؛ علَّامة المالكية في عصره، وشهاب الدين الرملي علامة الشافعية في عصره، وشهاب الدين الفتوحي علَّامة الحنابلة.

(١) لواقح الأنوار القدسية، ص١٩

من أهل العلم اللدنِّي، حتى قال المناوي فيه «كان إذا تكلَّم فكأنَّه ينظر في اللوح»، يعني اللوح المحفوظ.

يقول تلميذه الشعراني: «كان يتكلم على معاني القرآن والسنة كلاماً نفيساً يتحيَّر فيه العلماء».

وقال: «وكنت أرسل إليه الناس يشاورونه في أمورهم، فما يُحوِجِ أحداً منهم إلى الكلام، بل يشير عليه بما يصلحه من غير سؤال».

وكان -رحمه الله- يأكل من كسبه بعمل الخوص، وإليه نسبته، وما كان يأكل شيئاً مما يأتيه من الأمراء وأعوانهم، ولا يتصرَّف من ذلك بشيء من مصالح نفسه، ولكن يصرفه للنساء والأرامل والعُميان والعَجَزَة.

رمدت عيناه وهو يضفر الخوص، فجاءه بعض أصحابه بمال وقال له: أنفقها واسترح من العمل، فردَّها وقال: لا تطيب نفسي بكسب نفسي فكيف تطيب بكسب غيري؟».

كان -رحمه الله- يرتِّب على نفسه أعمالاً يترفع عنها السوقة فضلاً عن الأكابر، فيكنس المساجد، وينظف بيوت الخلاء، ويحمل الكُنَاسة ويخرجها إلى المزابل كل يوم جمعة، حِسبةً لوجه الله، وإذا أراد أحد ممَّن يعرف قدره أن يقبِّل يده، زجره ونهاه عن ذلك، لأنَّه لم يكن يرى أنَّه أهل لأن يقبِّل أحدٌ يدَه.

توفي بالقاهرة سنة (٩٣٩هـ).

ومن أقواله ونصائحه التي كان ينصح بها المريدين والطلبة:

«لا تقوموا لأحد من الإخوان وغيرهم، إلا إذا علمتم منهم عدم الميل إلى القيام، فإنَّ من قام لمن يحب القيام كبَّر نفسه بغير حقّ».

وقوله: «يكفي الفقيرَ هذه الأيامَ حجَّة الإسلام ولا ينبغي الزيادة، إلا إن كان خالياً من مِنَّة الناس عليه، ولا يطرق قلبَه تكديرٌ من التجار إذا لم يحسنوا إليه عند الجوع، أو العجز عن المشي، أو نحو ذلك».

وقوله:

«من صحَّ توحيده لله عز وجل انتفى عنه الرياء والإعجاب، لأنَّه يشهد جميع الأفعال والصفات ليست له، وإنما هي لله وحده».

ترجمة مقتبسة من (الطبقات الكبرى) للشعراني، و(الطبقات الكبرى) للمناوي.

وهكذا ترى -أخي- أن مجرَّد طلب العمل لا ينفع الإنسان عند الله شروى نقير، ما لم يكن ذلك الطلب خالصاً لله جلَّ اسمه، وأن مجرد الادعاء بأن طلب العلم إنما يقصد به وجه الله وحده، لا ينفع الطالب، ما لم يمتحِن تلك الدعوى بأنواع الامتحانات، التي يتميَّز بها ما كان لله مِمَّا كان لغيره سبحانه.

وإن مجرد الامتحان للنية لا ينفع الطالب ما لم يقترن ذلك بالتوبة من فساد النية -إن ظهر أن فيها فساداً- والتنصُّل من آثار ذلك، والمسارعة بالفرار إلى الله عند انكشاف ما فيها من الخلل بدلاً من التمادي في مغالطة النفس والناس بادعاء الإخلاص.

دين ودنيا..!

يقول من ترجم للإمام النووي* إنه درَّس في دار الحديث الأشرفية لسنوات، وتولَّى مشيختها، فلم يتقاضَ من أوقافها شيئاً قطّ، ولم يرض أن يسكن القاعة المخصّصة لشيخ المدرسة، وكان ناظر الوقف في المدرسة، يجمع له نصيبه من المال المُرصَد لمشْيَخة المدرسة، فكلما اجتمع لديه حقّ سنة أخذه الإمام فاشترى به كتباً أو نحوها مما ينفع المدرسة، فيوقفه عليها

❖ من هو الإمام النووي؟

ولد -رحمه الله- في نوى من قرى حوران (٦٣١هـ)، ودخل دمشق، واشتغل بالطلب حتى صار مرجعاً في علوم الشرع، وسَعَةُ علمه في الحديثِ واللغةِ والفقهِ وأصولِه أشهر من أن تذكر.

وَلِيَ -رحمه الله- مشيَخَةَ دار الحديث الأشرفية وله من العمر قريب من أربع وثلاثين سنة، ولم يوافق على توليتها إلا بعد جهد.

لم يكن أقرانه ولِدَاته من العلماء أقلَّ علماً منه، ولكنَّه تقدَّم على جميعهم بأخلاق العلماء التي أصاب منها حظّاً عزَّ نظيره، وفي ذلك نقل السخاوي عن القطب اليونيني قوله:

«والذي أظهره وقدَّمه على أقرانه ومن هو أفقه منه: كثرة زهده في الدنيا، وعظم ديانته وورعه، وليس فيمن اشتغل عليه من يلتحق به».

وصَدَق؛ فقد أثمر العلمُ فيه عملاً جعله في مقدِّمة علماء الإسلام؛ خُلُقاً وصلاحاً ووَرَعاً.

كان -رحمه الله- قليل النوم كثير القيام، قليل الطعام كثير الصيام، قد ترك نفسَه من الدنيا بكلِّ ما فيها، وصرف حياته كلَّها إمَّا إلى علم أو تعليم أو عبادة.

كان يراقب نفسه ويحاسبها على الخَطَرَات، ويعظِّم العلماء والصالحين، ويسوِّدهم إذا ذكرهم (أي يقول سيدنا فلان)، ويذكر من مناقبه وكرامته، حتى يَعظُم قدر ذلك العالم في عين من يسمع، لا يحب الجدل، ويُعْرِض عمَّن يخوض فيه.

ومن أعجب ما نُقِل عنه أنَّه -مع ما كان فيه من فاقة وعَوَز شديدين- لم يكن يأخذ من أحد شيئاً، حتى أوقاف دار الحديث التي كان شيخاً لها، لم يكن يستجيز أن يأخذ لنفسه منها شيئاً، بل كان يكتفي عن كل ذلك بما ترسله له أمّه من كعك يابس وتين حوراني، ولا يزيد على ذلك إلا نادراً، وكان يلبس الثوب

الخام لذي كان يلبسه عامَّةُ الحوارنة، فيراه الرائي فلا يأبه له، ولكنه كان يخفي تحت ذلك الثوب علوم الدنيا وأخلاق النبوة.

ولعل ذلك الزهد والإخلاص اللذَين حباه الله بهما، كانا السبب وراء ما وضعه الله لمصنفاته من قبول لدى العامة والخاصة من الناس، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوت المسلمين في أقاصي الأرض وأدانيها من مصنف من مصنفات الإمام، ككتاب الأذكار أو كتاب رياض الصالحين، أو شرح من شروح كتاب المنهاج في الفقه الشافعي، هذا فضلاً عن كتبه العلمية التي لم يُسبَق إليها ولم يُلْحَق، ككتاب المجموع، وكشرحه لصحيح مسلم.

قال اليافعي: وقد بلغني أنه حصلت له نظرة جمالية من نظرات الحق سبحانه وتعالى بعد موته، فظهرت بركتها على كتبه، فحظيت بقبول العباد، والنفع في سائر البلاد.

بل قال تلميذه العطار: حتى رأيت من كان يشنؤها في حياته، مجتهداً في تحصيلها والانتفاع بها بعد مماته.

فيا هنيئاً له مِنْ عالم انقطع عن الدنيا، ولم تنقطع عنه قِطَافُ علمه في قبره، إلى زمانٍ الناس هذا، بل إلى قيام الساعة.

لم يُعمَّر -رحمه الله -كثيراً، وفي هذا يحدثنا علاء الدين العطار -وهو تلميذه المقدَّم- عن الأيام الأخيرة في حياته فيقول:

«كنت جالساً بين يديه قبل انتقاله بشهرين ونحوها، وإذا بفقير قد دخل عليه وقال: الشيخ فلان يسلّم عليك من بلاد صَرْخَد، وأرسل معي هذا الإبريق لك، فقَبِلَه الشيخ وأمرني بوضعه في

بيت حوائجه، فتعجَّبت من قبوله (لأنه لم يكن يقبل من أحد شيئاً كما تقدم)، فشعر بتعجبي وقال: أرسل إليَّ بعض الفقراء زربولاً، وهذا إبريق، فهذه آلة السفر.

ثم بعد أيام يسيرة كنت عنده فقال لي: قد أُذن لي في السفر. . . . وقد حملت كلام الشيخ على سفر العادة، فإذا هو السفر الحقيقي، ثم قال: قمْ حتى نودِّع أصحابَنا، فخرجت معه إلى القبور التي دفن بها بعض مشايخه، فزارهم، وقرأ شيئاً، ودعا وبكى، ثم زار أصحابه الأحياء. . ثم سافر صبيحة ذلك اليوم، وجرى لي معه وقائع، ورأيت منه أموراً تحتمل مجلدات».

ثم سار -رحمه الله- إلى نوى، وزار القدس والخليل، ثم عاد إلى نوى، ولم ينشِب أن توفي بعد أيام في ليلة الأربعاء الرابع والعشرين من رجب (٦٧٦هـ).

▪ ترجمة مقتبسة من (منهاج الطالبين في ترجمة شيخنا الإمام محيي الدين) للعطار.

قال مترجمه وعصريّه وتلميذه الإمام العطار:

«وكان رضي الله عنه لا يقبل من أحد هدية، إلا إن تحقق دينَه ومعرفَتَه، ممن ليست له به علاقة من إقراء أو انتفاع، قاصداً الخروج من حديث (إهداء القوس)» انتهى كلام العطار[1]

(١) تحفة الطالبين في ترجمة شيخنا الإمام النووي محيي الدين: علاء الدين بن العطار، ص ٧

فما قصة حديث إهداء القوس هذا، التي تعلَّق بها الإمام النووي في رفضه العطيَّة ممَّن يقرؤون عليه ويأخذون عنه العلم والفتوى؟

روى الطبراني وغيره عن الطفيل بن عمرو الدوسي قال: «أقرأني أُبَيّ بن كعب القرآن، فأهديت إليه قوساً، فغدا إلى النبي ﷺ وقد تقلدها، فقال النبي ﷺ: تقلدْه من جهنم، قلت: يا رسول الله، إنا ربما حضر طعامهم فأكلنا، فقال: أمَّا ما عمل لك، فإنما تأكله بخلاقِك، وأما ما عمل لغيرك فحضَرْتَه فأكلْت منه فلا بأس»[١]

وروى البيهقي وغيره عن عبادة بن الصامت، قال: «علّمت أُناساً من أهل الصُّفَّة الكتاب والقرآن، فأهدى إليّ رجل منهم قوساً، فقلت: ليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله، لآتين رسول الله ﷺ فلأسألّنه، فأتيته فقلت: يا رسول الله، أهدى رجل إليّ قوساً ممن كنت أعلّمه الكتاب والقرآن، وليست بمال، وأرمي عليها في سبيل الله؟ قال: «إن كنت تحبُّ أن تُطوّق بطوق من نار فاقبلها»[٢]

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط، رقم (٤٣٩).
(٢) السنن الكبرى: البيهقي، رقم (١١٦٨١).

سبحان الله! أين نحن من وصايا رسول الله ﷺ؟!

سبحان الله! ما أبعد سلوكنا وفهمنا لهذه الوصايا، عن سلوك أولئك الربَّانيين من ورثته ﷺ وفهمهم!

إن بعض (الدعاة) الآن يرون أنه لا بد للداعي من ملبس فاخر، وجوَّال حديث، ومنزل حسن وواسع في مكان مناسب، ولا بد أن يجهز البيت بكل ما تجهّز به بيوت أهل الغنى واليسار (من ضروريات وكماليات)، ولا بد بعد ذلك من سيارة فارهة؛ إذ لا ينبغي للشيخ أن يتساهل في شيء من ذلك، أو أن يتواضع فيه، حتى لا يكون من ذلك معرَّة تلحق بأصحاب الدين، وحتى يكون من ذلك إعزاز(للشيخ) بصفته رمزاً من رموز الإسلام!!

وهؤلاء يرون أن ذلك مسوِّغ شرعي كيما يمدوا أيديَهم للناس ليأخذوا من أموالهم أجراً، أو صدقة، أو زكاة، أو بِرّاً.

وهكذا صرنا نرى في (الدعاة) من يتضعضع للأغنياء وأصحاب الثروات، عسى أن يتصدق عليه بعضهم بسيارة أو منزل. أو ربما بجوال حديث!!

وصِرنا نرى في (الدعاة) مَن بنى القصور مِن خدمة الحُجَّاج والمعتمرين.

وصرنا نرى في (الدعاة) مَن جنى الثروات مِن مدْح رسول الله ﷺ.

وصرنا نرى فيهم من يبيع علمه كما يبيع التاجر سلعته.

أي خبْط هذا!؟

نبِّئني بربِّك، متى يقتنع الناس الذين يرون (الشيخ) على هذه الحالة، وأنه أشدُّ لهاثاً وراء أموالهم ودنياهم، منهم هم أنفسهم، متى يقتنعون بأن الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، هما مفتاح محبة الله تعالى، وباب الدخول عليه سبحانه؟

متى يقتنعون بأنهم ما لم يتركوا الدنيا قبل أن تتركهم، فإن مصيرهم مظلم؟

أرأيت لو أن هذا (الشيخ) صعِد المنبر، وبدأ يحدِّثهم بحديث رسول الله ﷺ: «ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبوك»[1]، أتراهم يصدِّقون

(١) سنن ابن ماجه، رقم (٤١٠٢).

ذلك، وقد كان (الشيخ) بالأمس يساومهم مساومة التاجر العتيد على أموالهم، ليأخذها مستكثراً، تارة لأنه يقرأ لهم القرآن، وتارة لأنه يعلِّمهم، وتارة لأنه يخدمهم ويرشدهم في رحلات الحج والعمرة، وتارة لأنه يحْيِي لهم مناسبة من المناسبات بالإنشاد والذكر؟

ويا ليته إذ فعل ذلك فعله ليحيا حياة البسطاء، ولكنه يفعل ذلك لأنه لا يرضى إلا أن يحيا حياة المترفين والمبالغين في التنعم.

أرأيت يا أخي يا طالب العمل، لو كنت أنت هذا (الشيخ) وهذا (الداعية)، أفتحسب أن علمك الذي اكتسبت به الدنيا، سيكون حجة لك بين يدي الله، أم حجة عليك؟

أهذا هو العلم الذي تستغفر لك لأجله ملائكة الله، والطير في السماء، والحيتان في البحر؟

أفتحسب أن هؤلاء الناس سيكونون رصيداً لك في صحيفة حسناتك، أم أنهم سيكونون سبباً لخسرانك لأنك علمتهم -بلسان الحال لا بلسان المقال- التمسك بالدنيا، وعلمتهم أن كل شيء في سبيل الدنيا يهون، وأن المسلم

الجيد -وأنت مثال عليه- هو الذي يجاهد ليكون من الدنيا على أحسن حال؟

لقد جعل الله ترفُّع الأنبياء عن الأجر الدنيوي، آية من آيات صدقهم، وكلما كذّب قوم رسولَهم، واجههم ذلك الرسول بشعار الأنبياء الدائم: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ١٠٩]، فكان ذلك حجة دامغة لا تُدافَع على صدقه.

وهذا حبيب النجار يسجِّل له القرآن أنه حين دعا قومه ليتَّبعوا الرسل قال لهم: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يس: ٣٦/ ٢١].

فانظر كيف أنه لم يجد دليلاً أكثر نصوعاً على صدق أولئك الرسل، من أنهم لا يطلبون على هدايتهم للخلق أجراً.

والناس إذ يحترمون الدعاة والشيوخ، إنما يفعلون ذلك لأنهم يرون أن ما يدعو إليه هؤلاء لا يرجع إليهم بمغنم دنيوي، بل هم يتفانون، ويبذلون أوقاتهم، ويفنون أجسادهم، من أجل هداية الآخرين، ومن أجل إنقاذهم

من النار، فإذا أحسّ الناس أن (الداعية) يجتهد في خدمتهم وتعليمهم وتربيتهم، وعينه في الوقت نفسه على جيوبهم، سقط من أعينهم، ويوشك أن يسقط من عين الله إن كانت نفسه مشرفة لذلك، طامعة فيه. ومن أجل ماذا؟؟ من أجل مزيد من المتاع، ومزيد من الترف، ومزيد من البذخ، ومزيد من السلطة، ومن أجل منافسة أهل الدنيا على دنياهم.

ومن أجل ذلك، لم يحبَّ الرّبّانيون من العلماء للإنسان أن يعتاش على ما يأتيه من جرايات الناس وعطاياهم، ولو كان الشرع يرخِّص له في ذلك، ويستحبُّون له أن يأكل من كسبه، ولهذا كان الحسن البصري يقول:

«لا تزال كريماً على الناس ما لم تعاطَ ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخفوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك».

وكان الشيخ محمد الشناوي* يقول: «من شرط المربي أن يُطعِم ولا يُطعَم».

❖ من هو الشيخ محمد الشناوي؟

كان أوسع أشياخ عصره خلقاً، وأكرمهم نفساً، وكان يقول: الطريق كله أخلاق لا أقوال ودعاوي، وكان يقول: «ما دخلت على فقير إلا وأنظر نفسي دونه». ينشر الذكر حيثما حلَّ، فيلقِّن الذكر للرجال والنساء والأطفال، ويأذن لهم بتلقينه، ويقيم له المجالس في البلاد، ويقول: «يا فلانة، اذكري بأهل حارتك، ويا فلانة اذكري بإخوانك».

وكان يكثر أن يقول عندما يلقِّن أحداً الذكر

أهيم بليلى ما حييت وإن أمُتْ
وَكَّلْتُ بليلى من يهيم بها بعدي

كثير العبادة، قليل النوم، صاحب همّة وحال عظيمين، حتى إنّه كان يؤثر في الناس بمجرَّد النظر، وربما نظر إلى قاطع طريق وهو مارٌّ عليه، فيتبعه ويصير من تلامذته.

يقول الشعراني تلميذه: ورأيت منهم جماعة (أي من قُطَّاع الطريق والفَسَقَة) صاروا من أهل جماعته.

كان لا يقبل شيئاً من هدايا العمال، والمباشرين، وأرباب الدولة، ويقول: من شرط الداعي إلى الله تعالى أن يطعم الناس ولا يطعموه.

توفي بالغربية بمصر سنة (٩٣٢هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (الطبقات الكبرى) للشعراني؛ و(البدور السائرة بأعيان المئة العاشرة) للغزي.

وكان سفيان الثوري يقول: «العالم إذا لم يكن له معيشة صار وكيلاً للظَّلَمة، والعابد إذا لم تكن له معيشة أكل بدينه».

ويقول ابن الجوزي:

«رأيت عموم أرباب الأموال يستخدمون العلماء ويستذلُّونهم بشيء يسير يعطونهم إيَّاه من زكاة أموالهم، فإن كان لأحدهم ختمة قال: فلان ما حضر، وإن مرض قال: فلان ما تردَّد، وكل منَّته عليه شيء يببير نزر، يجب عليه تسليمه إلى مثله، وقد رضي العلماء بالذل في ذلك لموضع الضرورة، فرأيت أن هذا من جهل العلماء بما يجب عليهم من صيانة العلم، ودواؤه من وجهين:

أحدهما: القناعة باليسير، كما قيل: من رضي بالخل والبقل لم يستعبده أحد.

الثاني: صرف بعض الزمان المصروف في خدمة العلم إلى كسب الدنيا، فإنه يكون سبباً لإعزاز العلم، وذلك أفضل مِن صرف جميع الزمان في طلب العلم مع احتمال هذا الذلّ»[1]

---

(١) صيد الخاطر، ص٢٢٤

وقد يعترض معترض على هذا الكلام، بما نجده في سيرة بعض مَن يُتأسَّى بسيرتهم من أهل العلم والصلاح، من أنهم يأخذون المال من الناس، بل إن الناس يتقربون إلى الله بما يقدمونه لهم، فكيف يمكن التوفيق بين فعلهم هذا، وما سبق ذكره من ضرورة الإعراض عن أموال الناس؟

والجواب:

إن أخذ المال ليس محظوراً على الشيوخ بالكلّية، بل قد يكون وصْل الناس للشيوخ بالهدايا والمال واجباً أدبياً وأخلاقياً، فإنّ حقَّ الشيخ على الناس من أوجب الحقوق، ومع أن أكثر الشيوخ يترفعون عن ذلك، ولكن الذين يقبلونه منهم، يأخذون أنفسهم بقاعدة معروفة عندهم، فيها الجواب عن ذلك الاعتراض.

والقاعدة المعمول بها عندهم في ذلك أنهم لا يطلبون، ولا يردّون، ولا يمسكون[1]، فإذا جاءهم من

---

(١) ليست هذه القاعدة مخترعة من الشيوخ، بل هي مستنبطة من قوله ﷺ: «إذا جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس فخُذْه»، رواه البخاري عن عمر، رقم (١٤٧٣).

الناس شيء بغير سؤال ولا استشراف نفس قبلوه على سبيل الهدية ولم يردُّوه، وذلك بعد الطمأنينة لعفَّة المُهدي، وطيب المُهدَى، فإذا أخذوا شيئاً فإنهم لا يمسكونه، بل ينفقون منه على مصالحهم الخاصة التي لا بد منها، وينفقون على مصالح المسلمين مِن حولهم، فيطعمون، ويكسون، ويزوِّجون، وما أكثر المحاويج على أبواب الشيوخ، فلا يستكثرون، ولا يجمعون من ذلك المال فوق ما تتطلبه حاجاتهم الأساسية، بل إن فيهم من لا يستبقي من ذلك المال شيئاً إلى الغدْ، بل ينفقه من يومه، كما كان رسول الله ﷺ يفعل، وترى أكثر هؤلاء - جزاهم الله خيراً- تركوا الدنيا جملةً، وانصرفوا عنها، ورضوا من متاعها بما يقيم أوَدَهم، بلا توسّع في المعاش، وباعوا أنفسهم لله، وجعلوا حياتهم وقفاً على جذب الخلق إليه سبحانه[1]

(١) فائدة: في حكم أخذ الأجر على الطاعة؛ كاتخاذ المؤذن الأجر على أذانه، واتخاذ الإمام أجراً على إمامته الناس في الصلوات والخطابة، وهكذا.
وخلاصة الكلام في هذه المسألة أن القربات التي يتعدَّى نفعها للغير؛ كالأذان والإقامة وتعليم القرآن والفقه والحديث، يجوز =

فهذه هي سبيل الربَّانيين في الأخذ من الناس، وهذه هي طريقتهم في الجمع بين الدين والدنيا.

وأما أنصاف المشايخ، وأنصاف المتعلِّمين من أصحاب الآفات القلبية، فيعملون بنصف تلك القاعدة، ويجهلون، أو يتجاهلون نصفها الآخر، فترى أحدهم

= اتِّخاذ الأجر عليها عند جمهور الفقهاء من الشافعية والمالكية، وفي رواية عن الإمام أحمد، لكن كره المالكية أخذ الأجرة على تعليم الفقه والفرائض.
ويرى الحنفية، والإمام أحمد في رواية عنه، أنه لا يجوز أخذ الأجرة على ذلك؛ لأن من شرط صحة هذه الأفعال كونها قربةً لله تعالى، فلم يجز أخذ الأجر عليها.
لكن أجاز متأخّرو الحنفية أخذ الأجرة على تعليم القرآن استحساناً، ومثل ذلك الإمامة والأذان للحاجة.
وعلى كلٍّ، فالقائلون بالجواز جعلوا ذلك من باب الإعانة على الطاعة حتى لا يؤدي انصراف الناس إلى المعاش إلى اندثار الشعائر الدينية والعلوم الشرعية، ولا سيما في زماننا، مع عدم وجود بيت مال المسلمين، الذي كان يتكفل بمصارف الفقراء، وأمّا جعل هذا الحكم تُكَأَةً للتلذُّذ والتنعُّم بأكثر من حدِّ الكفاية؛ بالتعالي في البنيان، والمفاخرة بألذّ المطعم، وأفخم الملبس وأحدث السيارات وسائر وجوه الترف، فلم يقل به أحد البتَّةَ، والله أعلم.

يُدخل نفسه في زمرة المشايخ والعلماء، ثم يتَّخذ من طريقتهم في الأخذ حجَّة للاستكثار من المال والملذَّات الدنيويَّة، فيَمُدّ عينيه إلى جيوب من معه، وتستشرف نفسه إلى ما عندهم من مال وجاه وسلطان، ولا يرضى حتى يحمله ذلك على تقريب أهل اليسار والغنى، والتزلُّف إليهم بما لا يستحقُّونه؛ طمعاً بما لديهم، وربما تجرَّأ على طلب ذلك منهم تصريحاً أو تلميحاً، أو بإحالة بعض فواتيره ومصارفه الخاصة عليهم، حتى يجتمع عنده من الدُّنيا ما يسبق به أهلَ الدُّنيا بمراحل، وحتىٰ صار ما أبيح لهم للضرورة، أعظمَ باب وأسهلَه لتحصيل الدنيا، بكل بهارجها وزينتها ومتعها.

وما أكثر ما تسمع أمثال هؤلاء يبرِّرون فعلهم ذاك، مكرِّرين ببرود قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٧/ ٣٢]، هدانا الله وإياهم، وأعاذنا وإياهم من أحابيل الشيطان ووساوس النفوس.

وثمة حيلة من حيل الشيطان أدَقُّ من هذه، تُنال بها الدنيا بالدين من أقرب طريق وأخفاه، وذلك أن (الداعية)

و(المعلم)، قد ينتفع بمنزلته الدينية عند الناس بمنافع دنيوية أخرى؛ كتقديم التسهيلات في البيع والشراء، والتقدّم على الغير في مواضع المشاحّة والإيثار، واستخدام الطلبة والأتباع في مصالحه الخاصة، التي لا علاقة لها بالمصلحة العامة، كما لو أنهم موظفون لديه، فلا يتحرَّج من الانتفاع بحِرَفِهم وبيوتهم ومزارعهم وسياراتهم ومناصبهم، بل يتوقع أن يوضع كل ذلك في خدمته، ومن دون طلب منه، فكيف لو طلب؟ فإذا أمسك بعض أتباعه عنه شيئاً من ذلك، عدَّ ذلك من التقصير في خدمة الدين وأهله.

وكل ذلك إن مال قلب المعلم والداعية إليه، ورأى نفسه أهلاً له، وجديراً به، أو أنه من حقوقه على الناس، فكل ذلك من التأكُّل بالدين، ومن شراء الدنيا بالآخرة.

روى الحافظ الأصفهاني أن ابن مُحَيريز* -وكان من التابعين- ذهب إلى بزّاز (بائع ثياب) يشتري منه ثوباً، وعنده رجل يعرف ابن محيريز، والبزاز لا يعرفه، فقال ابن محيريز: بكم الثوب؟ قال التاجر: بكذا، فقال الرجل الذي يعرف ابن محيريز للتاجر: أحسن إلى ابن محيريز،

فقال ابن محيريز: إنما أنا جئت أشتري بمالي، ولم أجئ أشتري بديني، فقام ولم يشترِ[1]

جئت أشتري بمالي، ولم أجئ أشتري بديني.

ما أحلاها من كلمة!

وما أجدرها أن تكون قانوناً لكل من تشرَّف بلُبس ثوب الدعوة إلى الله.

❖ من هو ابن محيريز؟

هو عبد الله بن مُحَيريز القُرَشي المكي، الإمام الفقيه، القدوة الرباني، ومن سادة التابعين.

كان رحمه الله من العلماء العاملين، كثير الصمت، كثير الاجتهاد في العبادة، يتوقَّى إظهار حسناته للناس، كما يتوقَّى إظهار السيئات، وإذا حدَّث الناسَ كره أن يُنْسب ذلك إليه خوفاً من أن يظنَّ الناسُ فيه خيراً لا يراه هو في نفسه من كثرة اتهامه لها.

قال يحيى السيباني: قال لنا ابن محيريز: إني أحدثكم، فلا تقولوا: حدثنا ابن محيريز، إني أخشى أن يصرعني ذلك القول مصرعاً يسوءني.

(١) حلية الأولياء، ٥/١٣٨

وقال رجاء بن حَيْوَة: إن يفخر علينا أهل المدينة بعابدهم ابن عمر، فإنَّا نفخر عليهم بعابدنا ابن محيريز، والله إنْ كنت أعدُّ بقاءَه أماناً لأهل الأرض.

ويقول الأوزاعي: «من كان مقتدياً، فليقتدِ بمثل ابن مُحَيريز، إنَّ الله لم يكن ليضلَّ أمَّة فيها ابن مُحَيريز».

فانظر -أخي- إلى عالم عامل، تُعْصَم به الأمَّة من الضلال، ويتحصَّن به أهل الأرض من العذاب.

توفي في بيت المقدس سنة (٩٩هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (تذكرة الحفاظ)؛ و(سير أعلام النبلاء).

وأما بشر الحافي -رحمه الله- فكان يقول لتلامذته: «لا ينبغي لأحد أن يذكر شيئاً من الحديث الشريف في موضع حاجة تكون له من حوائج الدنيا، ولا يذكر العلم في موضع الدنيا، وقد رأيت مشايخ طلبوا العلم للدنيا فافتضحوا»[١]

❖ من هو بشر بن الحارث؟

هو الإمام العالم، المحدِّث الزاهد، الربَّاني القدوة، شيخ الإسلام، أبو نصر، المشهور بالحافي، ولد سنة (١٥٠هـ) في مرو، ثم ارتحل إلى بغداد، وتوفي فيها.

(١) حلية الأولياء، ٨/ ٣٤٩

كان رحمه الله من أولاد الرؤساء وأصحاب اليسار، وكان عيَّاراً صاحب لهو وعبث، وممَّا روي في سبب تحوُّل حاله، أنَّه كان في داره مع جمع من رفقائه يشربون ويتضاحكون، فاجتاز بداره رجل صالح، فسمع ما هم فيه، فطرق الباب، فخرجت جارية، فسألها: صاحب هذه الدار حر أم عبد؟ فقالت: حاشا أن يكون عبداً، بل حرٌّ، قال. صدقتِ، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية وترك ما هو فيه، فسمع بشرٌ تحاورهما، فكأنَّما أصاب الكلام شغافَه، فخرج يطلب الرجلَ حاسرَ الرأس حافياً حتى أدركه، فقال له: أعدْ عليَّ ما قلت، فأعاده، فسرى في بشرٍ حالٌ عظيمٌ، ووقع يمرِّغ خديه بالأرض، وهو يقول: بل عبد عبد عبد، ثمَّ هام على وجهه حافياً حاسراً، حتى عُرِف بالحافي، فكان بعد ذلك إذا سئل. لمَ لا تلبَس نعلاً؟ يقول: «حالٌ صالحني عليها مولاي، فلا أزول عنها أبداً».

وروى الأصفهاني عن رجل اسمه سفيان بن محمد المصيصي قال: «رأيت بشراً في المنام، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأباحني نصف الجنة، وقال لي: يا بشر لو سجدت لي على الجمر، ما أدَّيت شكر ما جعلتُ لك في قلوب عبادي».

والحقُّ أنَّ حياة بشر تشهد بصحة ذلك بلا ريب، فقد وضع الله له القبول في الأرض، وكثر جداً معتقدوه ومحبّوه من العامة والخاصة، فأقوال الأئمة في الثناء عليه أكثر من أن نحصى، وأخبار العامة في ذلك كثيرة جداً، فما كان ذلك يزيده إلا حطَّاً من شأن نفسه، وهرباً من مواطن الشهرة، ويدعو: اللهمَّ إن كنت شهرتني في الدنيا لتفضحني في الآخرة، فاسلبه

عني. وكان يقول: لا أعلم رجلاً أحبّ أن يُعرَف إلا ذهب دينه وافتضح، ويقول: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحبّ أن يعرفه الناس.

ويقول: سكون النفس إلى المدح وقبول المدح لها أشد عليها من المعاصي.

وروى الأصفهاني أنَّ بشراً كان يعبر في طريق، فرآه رجل سكران، فأقبل السكران على بشر يقبِّله ويقول: يا سيدي أبا نصر، وبِشرٌ لا يدفعه عن نفسه، فلمَّا ولَّى السكران، تغرغرت عينا بشر بالدموع، وقال: رُبَّ رجل أحبَّ رجلاً على خيرٍ توهَّمه فيه، ولعلَّ المُحبَّ نجا، والمحبوب ما يدري ما حاله.

فانظر كيف يتصاغر الأكابر في عين أنفسهم، حتى لا يرون لهم فضلاً على أحد من الخلق، ولو كان من الفَسَقَة العصاة المستعلنين بفسقهم ومعصيتهم.

توفي سنة (٢٢٧هـ) بمدينة بغداد، فأُخرجت جنازته بعد صلاة الصبح، فلم يستقر في قبره إلا ليلاً لكثرة من اجتمع في جنازته من الخلق.

■ ترجمة مقتبسة من (حلية الأولياء) للأصفهاني؛ و(وفيات الأعيان) لابن خلِّكان.

فماذا تقول (الداعية) التي تسخِّر بعض تلامذتها للعمل في منزلها، ولخدمة أسرتها، كما تُسخَّر الخادمات -ولكن من غير أجرة- ثم تتعلَّل بأنَّ في ذلك إعانة لها على التفرُّغ للدعوة؟

وماذا يقول من إذا أُغلق في وجهه باب من أبواب الدنيا؛ مِن تيسير تجارة، أو تسيير معاملة، أو نحو ذلك، سارع لاستفتاح ذلك الباب بالتعريف بنفسه بأنه الشيخ فلان، والخطيب فلان؟

بل ماذا يقول من يريد أن يمرِّر لنفسه أمراً ممنوعاً عرفاً أو قانوناً (إن لم يكن شرعاً)، بحجة أنه (الشيخ) فلان؟

يقول الإمام الغزالي مشخِّصاً تلك الأمراض:

«ثم يتوقع المعلِّم من المتعلِّم أن يقوم له في كل نائبة، وينصر وليه، ويعادي عدوه، وينتهض جهاراً له في حاجاته، ومسخراً بين يديه في أوطاره، فإن قصّر في حقه، ثار عليه، وصار من أعدى أعدائه، فأَخْسِس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة، ثم يفرح بها، ثم لا يستحيي من أن يقول: غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى، ونصرة لدينه!!

فانظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات»[١]

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٥٠.

نسأل الله أن يبصرنا بعيوب أنفسنا، وأن يعيننا على إصلاح ما فسد من نياتنا، آمين.

❖ من هو الإمام أبو حامد الغزالي؟

يحدثنا الغزالي فيما نقله عنه بعض المؤرخين فيقول:

«مات أبي، وخلف لي ولأخي مقداراً يسيراً، فَفَنِيَ بحيث تعذر علينا القوت، فصرنا إلى مدرسة نطلب الفقه، ليس المراد سوى تحصيل القوت، فكان تعلّمنا لذلك، لا لله، فأبى أن يكون إلا لله»

وكان من أمر هذا الطالب اليتيم الفقير، أنّه تحوّل إلى نيسابور، وتتلمذ على إمام الحرمين، فَعَلا نجمه وذاع صيته، حتى بلغ أمره الوزيرَ نظامَ الملك، فانبهر به وأدناه، وولّاه تدريس النظامية ببغداد، وكانت أشهر معاهد العلم في زمانها، فصار شيخها وله من العمر ثلاثون عاماً، فعظُم جاهه، وطار صيته في الآفاق؛ لما كان له سيلان في الذهن، وبراعة في المناظرة، وإحاطة بالعلوم.

ثم إنَّ نفسه عزفت عن هذا الجاه، وغلب عليه التألّه، ومال إلى معالجة النفس بالمجاهدات، وصحب الشيخ أبا علي الفارمدي لسان خراسان وشيخها، ثم انسلخ مما كان فيه من الجاه والشهرة بالكلّية، فحجَّ، وزار بيت المقدس، ثم دخل دمشق سنة ٤٨٨هـ متزهِّداً مجهولاً، لا يعرفه أحد، ولزم المسجد الأموي في المنارة الغربية منه، والتي صارت تنسب إليه

فيما بعد، وذكر بعض المؤرخين أنه أقام في دمشق عشر سنوات، وفي دمشق ألف كتابه العظيم (إحياء علوم الدين) وأسمعه، ثم ألحَّ عليه الوزير فخر الدين بن نظام الملك ليقدم للتدريس في نظامية نيسابور، ففعل.

وكان ممن عاصر الإمام الغزالي في عهدَيه مؤرخ مشهور اسمه عبد الغافر الفارسي، فقال يصف حال الغزالي كيف كان وكيف صار، في كتاب (سياق التاريخ):

وما كنت أَحْدُس (من الحدس) في نفسي -مع ما عهدته عليه من الزَّعَارة (سوء الخلق) والنظر إلى الناس بعين الاستخفاف كبْرَاً وخُيَلاء، واعتزازاً بما رُزِق من البَسْطَة والنطق والذهن وطلب العلوّ- أنَّه صار على الضد، وتصفَّى عن تلك الكُدورات، وكنت أظنه متلفِّعاً بجلباب التكلُّف، متنمِّساً بما صار إليه، فتحقَّقت بعد السَّبْر والتنقيب، أنَّ الأمر على خلاف المظنون، وأنَّ الرجل أفاق بعد الجنون.

بلغ عدد مؤلفاته مئتي مؤلف، وتوفي في طوس، وهي ما يسمى اليوم مشهد، من مدن إيران، سنة (٥٠٥هـ) وله خمس وخمسون سنة.

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء) للذهبي.

تذكر

- لا تطلب ولا تتوقع من علمك وتعليمك للناس مكسباً مادياً، تحت أي اسم كان: أجرة، أتعاب مقابل الوقت والجهد، هدية، زكاة، صدقة، برّ.
- اجتهد أن يكون لك عمل دنيوي تكتسب منه من غير طريق العلم الشرعي والدعوة.
- إن لم يتيسر لك ما سبق، واضطررت أن تأخذ مالاً كأجرة أو هدية، أو صدقة، أو زكاة، أو غير ذلك، فالتزم بالقدْر الذي يبيحه لك الشرع، واحذُ حذوَ الصالحين الذين سبق ذكرهم، من غير توسع في ملذات الدنيا المباحة، وأحضر نيتك كراهيةَ ذلك، وحاسب نفسك كلما وجدت من نفسك استشرافاً لذلك المال، وطمعاً فيه، بلْهَ أن تخاصم من أجله.
- لا تمنن على الناس الذين تعلمهم بعلمك، ولا تنتظر منهم أجراً، ولا مدحاً، ولا تنتظر منهم أن يفسحوا

لك في المجالس، أو أن يقوموا لتلبية حاجاتك، أو أن يضعوا سياراتهم بخدمتك، أو أن يؤمِّنوا لك من يوصلك إلى المسجد أو يعيدك منه، ولا تنتظر منهم أن ييسروا لك في الأسعار إذا بايعتهم، ولا أن يعاملوك معاملة خاصة في محالِّهم وتجارتهم، ولا تنتظر أن يتابعوا لك الهدايا، حتى لو كان ذلك في مناسبة يتعارف الناس على التهادي فيها

- اعقد قلبك على أنّ من تعلمهم هم أصحاب الفضل عليك، إذ وثقوا فيك فسلموك قلوبهم وعقولهم لتصلحها ولتدخل بذلك الجنة.

عندما تصبح الدعوة حرفة

قبل مدة بثت (بي بي سي) تقريراً ناقشت فيه النشاط الدعوي لبعض العاملين في هذا المجال، وعرفت ببعض الدعاة المشهورين بأنه: «داعية محترف».

ولا أعلم -وللحق- إن كانت (بي بي سي) تريد باستخدامها لهذا المصطلح الغريب أن تروج لفكرة خبيثة وغير مقبولة في الثقافة الإسلامية؛ وهي فكرة تحويل الدعوة إلى حرفة، والداعية إلى محترف، وهذا ما يعني أن هناك داعياً محترفاً وآخر هاوياً، وأن المحترف قد تعلم (مصلحة) الدعوة حتى صارت مهنته، وحتى صار خبيراً بها، وأنه كأي محترف وصاحب مهنة، لا بد أن يتقاضى أتعاباً لقاء عمله وخبرته، وهذا ما لا بد منه من أجل أكل العيش، ورزق العيال، والأتعاب تختلف طبعاً

حسب درجة الخبرة، إلى آخر هذه المعاني التي تثيرها في الذهن كلمة محترف.

أو أن (بي بي سي) تصف واقع حال كثير من الناشطين في مجال الدعوة الإسلامية، حيث تتحول الدعوة في كثير من الأحيان إلى أداء مسرحي، يتضمن انفعالات مصطَنَعة تهدف إلى خلق جوّ من التأثر والاستقطاب والجذب للمستمعين، يشبه ذاك الذي يروج عند المبشرين الأنجليكان في أمريكا وغيرها.

وللحقيقة، فعلى كلا التقديرين، فإنّ وصف الدعوة بأنها حرفة، والداعي بأنه محترف، لهو أمر قبيح، وما ينبغي لجهة أو هيئة تتفهم الإسلام وتحترم المسلمين أن تلصق هذا الوصف بالدعوة الإسلامية، ولا بالدعاة إلى الإسلام، ولكن ماذا يقال إن كان واقع المسلمين -وللأسف- هو ما سوَّغ لـ(بي بي سي) ولغيرها استخدام ذلك الوصف، حَسُنت النية أو خبثت؟

هذا مقدِّم لأحد البرامج من (الدعاة المشهورين)، ما إن يعطي المخرج إشارة البدء بالتصوير حتى يتقمَّص

المقدِّم دوره، ويتحوّل من حال إلى حال، في صوته وتعبير وجهه، وعلامات الخشوع في صوته وإيماءاته، وما إن يعطي المخرج إشارة التوقف حتى -وخلال ثانية- يرجع إلى حالته الأولى. انتهى التصوير.

وكثيراً ما رأيت بعض المادحين للنبي ﷺ، يكثر من إغماض عينيه، ويتكلَّف التخشُّع والتواجد، وربما البكاء -وهذا ما يسرّ الحاضرين طبعاً- ولكن ما إن ينتهي الوقت المحدَّد للحفل، يتحوَّل ذلك الباكي الخاشع إلى تاجر يساوم صاحب الحفل على الأجر، مراعياً -بالتأكيد- مستوى الزبائن (والذين هم هنا المدعوون للسماع)، ومستوى الحفل، والمكان الذي أجري فيه.

وحضرتُ مرةً موقفاً لقارئ للقرآن، من المعروفين المشهورين، وقد دُعي لقراءة القرآن في بعض سُرادِقات العزاء، وبعد أن انتهت ليالي العزاء، سأله صاحب العزاء عن أجرته وأتعابه (وما أقبحها من كلمة حين تُقرن بالقرآن!)، فطلب مبلغاً زائداً عن المعتاد، فراجعه صاحب العزاء وقال له: ولكنّ القراء يتقاضون كذا وكذا، ولا يبلغون فيما يطلبون من المال ما طلبت.

فالتفت ذلك القارئ إلى بعض من يعرفونه ويقدِّرونه - وكان بجواره- وقال له مُغْضَباً: يا أبا فلان، قلْ له من أنا، قلْ له من هو الشيخ فلان! يعني أنه لا يجوز أن يقارَن أجره -وهو القارئ المعروف- بأجر سواه من القراء المغمورين.

ولماذا ننكر على (بي بي سي) وصفها لبعض (الدعاة) بالمحترفين؟ وبأي شيء يختلف هؤلاء (الدعاة) عن أصحاب الحِرَف؟

أليس داعياً محترفاً ذاك الذي يبكي ويتأوّه ويلوِّن وجهه بكل ما يقتضيه المقام من انفعالات، لتؤثر في مشاهديه ومستمعيه، وما إن ينتهي (العرض) حتى يمسح دموعه، ويتحوَّل إلى تاجر يساوم على برنامجه أو تلاوته القرآن، أو مدحه للنبي ﷺ، مساومة تاجر محنَّك، وكلما زاد جمهوره زاد أجره؟!

ألا يذكِّرك هذا بالشعراء، إذ وصفهم الله بقوله: ﴿وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٤-٢٢٦].

وربما زيَّن الشيطان للبعض من هؤلاء، أنَّ تَخاشعه وتباكيَه، ما هو إلا من صفاء نفسه وفتوح ربه، وما ذلك إلا تلبيس من تلبيسات إبليس.

يقول ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس): «ومن ذلك (يعني تلبيس إبليس على الوعَّاظ ونحوهم) من يُظْهر من التواجد والتخاشع زيادةً على ما في قلبه -وكثرة الجَمْع توجِب زيادة تعمُّل- فتسمح النفس بفضل بكاء وخشوع، فمن كان منهم كاذباً، فقد خسر الآخرة، ومن كان صادقاً لم يسلمْ صدقه من رياء يخالطه»[1]

وقال ابن السمّاك* مرة لجاريته:

«ما لي إذا دخلت بغداد فُتِح لي بالحكمة؟»، فقالت: «الطمعُ يَشْحَذ لسانك».

❖ من هو ابن السماك؟

هو أبو العباس محمد بن صبيح، الزاهد، القدوة، سيد الوعاظ، ومن رواة الحديث، روى عنه الإمام أحمد وغيره.

(١) تلبيس إبليس، ص١٥١

قدم إلى بغداد من الكوفة زمن الرشيد، وكان له عنده حظوة ومنزلة، وكثيراً ما كان يعظه فيؤثر فيه ويبكيه، وذلك أنه كان ممن إذا وعظ أثر بحاله ومقاله، وقد جمعت مواعظه وحفظت وتناقلها الناس.

توفي سنة (١٨٣هـ) بالكوفة.

وتكلم يوماً وجاريته تسمع كلامه، فقال لها: كيف سمعت كلامي؟ فقالت: هو حسن، لولا أنك تردده، فقال: أردده كي يفهمه من لم يفهمه، فقالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه.

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء) للذهبي؛ و(وفيات الأعيان) لابن خلكان.

إنه الطمع إذن، إنها الدنيا من جديد تلبَس قناع الآخرة، وليس ذلك الأداء المؤثر فتوحاً، ولا خشوعاً، ولكنه تصنُّع قاد إليه الرغبة في الاستحواذ على قلوب من يسمعون ويشاهدون، وآية ذلك أن الجمهور كلما ازداد، ازداد معه ذلك (الفتوح)، وذلك الخشوع، وأن الأجر والأتعاب تزيد، كلما ازداد الخشوع والفتوح، وكلما ازداد إعجاب الناس بذلك.

والأعجب أن بعض هؤلاء يتعلمون البكاء تعلماً، فيستجلبونه كلما دعت الحاجة، ويفرحون أشد الفرح إن

تجاوبت معهم عيونهم في هذا، ويعدون ذلك توفيقاً وفلاحاً، وما هكذا كان فعل من يقتدى بهم من سلف الأمة:

حدث أبو بكر بن عياش عن عاصم قال: «كان أبو وائل إذا خلا بكى، ولو جعلت له الدنيا على أن يبكي وأحد يراه لم يفعل»[1]

❖ من هو أبو وائل؟

شقيق بن سلمة الأسدي، الإمام الكبير، شيخ الكوفة، أدرك النبي ﷺ وما رآه، ولكنه لقي من أصحاب النبي ﷺ طائفة كبيرة، ومنهم الراشدون عمر، وعثمان، وعلي، وقيل الصدِّيق أيضاً، وكان من أعلم الناس بحديث ابن مسعود.

قال إبراهيم النخعي فيه: «أدركت الناس، وهم متوافرون، وإنهم ليعدّونه من خيارهم». وذُكِر عنده أبو وائل مرّة فقال: «إني لأحسبه ممن يُدْفَع عنّا به».

وقال الذهبي فيه: «كان رأساً في العلم والعمل».

كان رحمه الله عفَّ اللسان، ما سُمع عنه قطّ مَسبَّةٌ لشيء، إنسان أو دابة أو غير ذلك، وذكر عنده الحجاج مرةً، فصار

(١) الإخلاص والنية: ابن أبي الدنيا، ص٥٨

بعض الحاضرين يسبُّه ويذكر من مساوئه، فقال: لا تسبَّه، وما يدريك، لعله قال: اللهم اغفر لي، فغفر له.

وروى ابن عساكر: «كان أبو وائل إذا خلا يَنشِج، ولو جُعل له الدنيا على أن يفعل ذلك وأحد يراه لم يفعل».

وأمَّا متاعه من الدنيا، فكان خُصًّاً من قصب، يقيم فيه مع فرسه، فإذا غزا نقضه، وإذا قدم بناه.

مات سنة (٨٢هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (تاريخ ابن عساكر) لابن عساكر؛ و(سير أعلام النبلاء) للذهبي.

وعن محمد بن واسع* قال: «والله لقد أدركت رجالاً كان أحدهم يقوم في الصف، فتسيل دموعه على خده لا يشعر الذي إلى جنبه»[1]

❖ من هو محمد بن واسع؟

محمد بن واسع الأزدي، الإمام الربَّاني، المحدِّث القدوة الزاهد، قال جعفر بن سليمان: «كنت إذا وجدت من قلبي قسوة، غدوت فنظرت إلى وجه محمد بن واسع».

من كبار العبَّاد والمتألِّهين، وكان -لصدقه وإخلاصه- يتكلَّف

(١) الإخلاص والنية، ص٦١

إخفاء عبادته. وروى ابن عساكر عن موسى بن سيار -وهو ممن صحبه في بعض أسفاره- قال: صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة فكان يصلي الليل أجمع، يصلي في المحمل جالساً، يومئ برأسه إيماءً، وكان يأمر الحادي يكون خلفه، فيرفع صوته حتى لا يُفْطن له.

قال ابن عساكر: كان ممن يُسْتَنصر به ويرجى مشهده.

وقال الأصمعي: «لما صافَّ قتيبة الترك (أي اصطفَّ بجنده لقتالهم)، وهاله أمرهم، سأل عن محمد بن واسع، فقيل: هو ذاك في الميمنة، جانح على قوسه، يبصبص بإصبعه إلى السماء، فقال قتيبة: لتلك الإصبع الفاردة أحب إلي من مئة ألف سيف شهير وشابّ طرير».

كان -رحمه الله- متقلِّلاً من الدنيا، زاهداً فيها، وحصل له مرة أنَّه أُريد على القضاء فأبى، فعاتبته امرأته فقالت: لك عيال وأنت محتاج، فقال لها: ما دمتِ تريننى أصبر على الخلِّ والبقل، فلا تطمعي في هذا مني.

دخل محمد بن واسع الأزدي على قتيبة بن مسلم بخراسان وعليه جبة صوف، فقال له قتيبة ما يدعوك إلى لبس هذه؟ فسكت، فقال قتيبة: أكلمك فلا تجيبني، فقال: أكره أن أقول زهداً، فأزكي نفسي، أو فقراً فأشكو ربي.

وشكا بعض الناس لمحمد بن واسع شيئاً فعله ولده، فأرسل محمد إلى ابنه فقال له: وأي شيء أنت؟ والله ما اشتريت أمك إلا بثلاث مئة درهم، وأمّا أبوك فلا أكثر الله في المسلمين مثله.

وأما نحن فنقول: بل كثَّر الله في المسلمين أمثاله مِنْ رجلٍ تُستَنْزَل الرحمات برؤيته وبحضوره وبذكره.

روى ابن عساكر عن فَضَالة بن دينار قال: حضرت مع محمد بن واسع وقد سجِّي للموت، فجعل يقول: مرحباً بملائكة ربي، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وشمِمْت رائحة طيّبة لم أشَمَّ مثلها، ثمَّ شخص ببصره فمات، وكان ذلك سنة (١٢٧هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (تاريخ دمشق) لابن عساكر؛ و(سير أعلام النبلاء) للذهبي.

وعن الحسن قال: إن كان الرجل ليجتمع إليه القوم أو يجتمعون يتذاكرون، فتجيء الرجلَ عَبْرتُه، فيردها، ثم تجيء فيردها، ثم تجيء فيردها، فإذا خشي أن يفلت قام[1]

كثير من (الدعاة المحترفين) - هدانا الله وإياهم- يبررون لنا أعمالهم المتكلَّفة والمتصنَّعة والتي يسمونها (دعوة إلى الله)، بأن الناس يدفعون ببذْخ، ويبذِّرون الملايين في حفلاتهم ومناسباتهم على المحرَّمات، فلماذا لا يدفعون (بضعة ألوف فقط)، لمن يسمَّون (دعاة) لإلقاء المحاضرات والعظات، أو لقراءة القرآن،

(١) الإخلاص والنية، ص٦٣

أو لإقامة الحفلات الإنشادية، أو لإسماع الناس المدائح النبوية، أو ليعلموهم المناسك، ويشرفوا على عباداتهم في رحلات الحج والعمرة، أو غير ذلك من مناشط الدعوة.

ثم ما المانع أن يتعلم (الداعي) كيف يكون مؤثراً، ولو أداه ذلك لإظهار ما ليس فيه؟ وما المانع أن يروِّج (الداعي) لبضاعته الطيبة تلك، وأن يتعلم أصول تسويقها، وفنَّ إقناع (الزبائن) بها، ليجذب هؤلاء الناس إلى ما هو مشروع -وإن كان مأجوراً مادياً- بدلاً من تركهم فريسة لتجَّار الحرام، الذين يبلعون أضعاف ذلك من المال، ثمناً لبضاعتهم الخبيثة؟

فأقول في الجواب:

عندنا في الشام مكاتب متخصصة بتخديم المناسبات ذات الطابع الديني؛ كالمآتم وحفلات عقود الزواج واستقبال الحجاج. ويكتب هؤلاء على لافتات محالهم، وفي إعلاناتهم، عبارات من قبيل:

"لدينا قهوة مرة- إنشاد- موالد- قراءة قرآن-

عراضات- تأجير كراسي- طباعة نعوات. خبرة كذا عاماً "!!

وعلى أولئك الذين يبررون احتراف الدعوة إلى الله على الوجه الذي وقع السؤالُ عنه، أن يُسألوا:

أيّ فرق تجدونه بين حرفتكم وحرفة أصحاب تلك المكاتب؟

نعم، إن أسلوب الدعاية والتسويق.لديهم بسيط وقديم، ولا يمكن مقارنته بأساليب الإقناع التي يعتمدها كثير من (الدعاة)، بما فيها من مؤثرات، ولكن أليست الفلسفة واحدة والهدف واحداً؟

أليس جذب الزبائن (أو قل إن شئت المشاهدين أو المستمعين) وإرضاؤهم، ومن ثَمّ استثمار ذلك الرضى، هو الهمَّ الوحيد عند الجميع؟

والفرق الجوهري بين الحرفتين، أن من يقوم على هذه المكاتب هم من عامة الناس البسطاء، الذين رأوا في تلك الحرفة باب أكل عيش، فاحترفوها من غير أن يتجرؤوا على الادعاء بأنهم مشايخ أو دعاة إلى الله، ومن

غير أن يمنّوا على أحد بأن الله قد اصطفاهم ليكونوا ورثة لأنبيائه، ليُخرجوا الناس من الظلمات إلى النور، وأن أجرهم في ذلك على الله. إنهم لا يدّعون شيئاً من ذلك، بل يقول لك أحدهم عندما تفاوضه على الأتعاب -وبكل صراحة-: «عمي، هذا باب رزق، بأقل من سعر كذا أخسر»، يعني أنه يخسر تجارياً، ولا يعني أنه يخسر الأجر عند الله[1]

وعلى هذا، فمن أراد أن يجعل الدعوة حرفة، فلا عليه أن يفعل، بشرط أن يصرِّح -كما يصرِّح أصحاب تلك المكاتب والحرف- بأن احترافهم إنما هو لأكل العيش وتحصيل الدنيا، وأنهم في ذلك كسائر الناس، يستثمرون ما لديهم من مواهب، ليكتسبوا ويعتاشوا، وعند ذلك يعلم كل من يعرفهم أنَّ باطنهم كظاهرهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، بلا تدليس، ولا تمثيل،

(١) ضرب المثل بأصحاب هذه المكاتب لا يعني أننا نقرهم على كل أعمالهم، فإن فيها منكرات لا يمكن تبريرها، والمقصود بيان أن الجرم يكون أفدح وأعظم إن كان من يفعله يسمي نفسه (شيخاً) أو (داعية) أو (محباً للنبي ﷺ ومادحاً له).

ولا مبالغة في تجميل الظاهر، ولا اختلاس للدنيا بالآخرة، وبلا ادِّعاء يكذِّبه الواقع.

ولعمري، إن من يفعل ذلك لجدير بالاحترام، وخليق بأن تنسب أخطاؤه إليه وحده، من غير أن يُحمَّل الإسلام أوزارها، وناهيك بها من أمانة، وناهيك بها من شجاعة!

تذكر

- كان الإمام أبو الحسن الشاذلي[١] يقول: «اعملوا ليصدقكم الله لا ليصدقكم الناس».
فتذكر ذلك يا أخي، فإنّ الذي يعقد قلبه على أن قبول عمله مَنوط بتصديق الله تعالى له، وليس الناس، يستغني بعلم الله فيه عن أن يتصنع للناس بما ليس فيه.
- لا تعبث بصوتك لتبدو كما لو أنك تبكي، أو تحبس البكاء، ولا لتعطي انطباعاً بأنك متأثر ما لم تكن كذلك فعلاً، فإنَّ في هذا اهتماماً بتجميل الظاهر بالخشوع والتأثر، مع خلو الباطن منه، والخشوع ما لم يَفِضْ على الظاهر من الباطن، فهو ضرْب من ضروب الرياء، ويصير تهدّج الصوت، ودمع العين، وحركة الأعضاء، هو إلى الأداء المسرحي أقرب منه إلى الوعظ.
- إذا كنت في جمع من الناس فغلبك البكاء، فاكظم ما استطعت، وابتعد عن الموقف الذي أثار بكاءك،

(١) انظر ترجمته، ص١١١

فإن البكاء في محضر الناس مدخل لعمل الشيطان، وباب للشهرة، وهو وإن وقع ابتداء على الصدق بلا شك، فإنّه حري أن يجرّ انتهاءً إلى الرياء بلا شك.

- إذا آتاك الله موهبة في مجال من مجالات الدعوة؛ كصوت حسن في التلاوة والإنشاد، أو براعة في مخاطبة الناس، فاعلم أنك في نعمة لا يَدَ لك فيها، وإنما هي محض فضل من الله تعالى، فاستحيي منه سبحانه أن تستعين بتلك الموهبة على أمر تعلم أن الواهب جلّ وعلا لا يحبه ولا يرضاه، واجتهد ما استطعت أن تبذلها للناس بلا مقابل، كما أعطاكها الله بلا مقابل.

- إن ابتليت برزق يأتيك من عمل يتصل بالدعوة إلى الله، فاختبر نفسك وسلْها: هل كنت لتدوم على تحمُّل أعباء ذلك العمل لولا ما يأتيك بسببه من مَغْنم دنيوي، فإن لم ينشرح صدرك للاستمرار في العمل، مع الحرمان من ذلك المغنم، فإنما أنت صاحب حرفة ولست داعياً إلى الله، فضع نفسك في موضعها.

شهوة الكلام

كثير ممن يملكون ناصية الكلام، وآتاهم الله قدرة على البيان، يتحوَّل الحديث عندهم إلى شهوة تشبه شهوة الطعام والشراب، فهم يشتهون الحديث كما يشتهونهما

فإذا عرضت لأحدهم مناسبة للكلام، أسرع إليها من غير أن يراجع نيته، فيعرض ما عنده من علم وبيان ومنطق، ثم يفرح بما يراه في عيون الناس من إعجاب وتأثّر، ويفرح بما يسمعه من ألسنتهم من الثناء والتعظيم، فيحمله هذا على حشد المزيد من الطُّرَف والأشعار والغرائب، ويحمله على مزيد من التصنع، ليعاود الاستعراض -الذي يسميه موعظة- في أول مناسبة أخرى تعرض له، وليغدو الكلام وما يحتاجه من عُدّة هدفاً في

ذاته، وليغدو معيار النجاح والإخفاق في الكلام، هو مقدار الإعجاب الذي يستثيره ذلك الكلام في نفوس مستمعيه.

وهل الشهوة الخفية شيء سوى هذا!؟

يقول ابن الجوزي❖:

«رأيت أكثر العلماء يتشاغلون بصورة العلم، فهمُّ الفقيه التدريس، وهمُّ الواعظ الوعْظ، فهذا يراعي درسه فيفرح بكثرة من يسمعه، ويقدح في كلام من يخالفه، ويُمضي زمانه في التفكر في المناقضات ليقهر من يجادله، وعينه إلى التصدر والارتفاع في المجالس، وربّما كانت همته جمع الحطام، ومخالطة السلاطين.

والواعظ همه ما يزوِّق به كلامه، ويُكثر جمعه، ويجلب به قلوب الناس إلى تعظيمه، فإن كان له نظير في شغله، أخذ يطعن فيه، وهذه قلوب غافلة عن الله عز وجل، إذ لو كان لها به معرفة لاشتغلت به»[1]

(١) صيد الخاطر، ص٣٤٢

❖ من هو ابن الجوزي؟

نشأ يتيماً، إذ مات أبوه وله ثلاث سنين، فربَّته عمَّته.

يصفه المؤرخون، فلا تشكُّ في أنَّه من أشهر من خَطَب ووعظ عبر تاريخ الإسلام كلِّه، بل قال الذهبي «لم يأت قبله ولا بعده مثله»، جمع الله له مع الحضور القوي والشخصية المؤثرة، بياناً وبلاغة وبديهة وصوتاً قلَّما يجتمعون في شخص واحد.

يحضر مجالسَه الملوك والوزراء وبعض الخلفاء والأئمة والكُبَرَاء، ولا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة.

أما علمه، فكان -رحمه الله- موسوعة في العلوم، مفسراً مؤرخاً محدِّثاً، فقيهاً، مشاركاً في الطب.

وكان زاهداً متقلِّلاً من الدنيا، لا يأكل إلا من جهة تيقَّن حِلَّها، ولا يخرج من بيته إلا قليلاً، ولا يخالط الناس إلا قليلاً، ووفِّق لاغتنام تلك العُزْلَة، فكان من أغزر علماء الإسلام إنتاجاً، حتى إنه قال مرةً: «بأصبعي هاتين كتبت ألفي مجلدة».

مرض -رحمه الله- قبل وفاته لخمسة أيام، فكُشِف له ما يُظنّ معه بأنَّه ممَّن خُتِم لهم بالحسنى، قال سبطه. «حكت لي أمي أنَّها سمعته يقول وهو يُحْتَضَر إيش أعمل بطواويس؟ يردّدها، قد جبتم لي هذه الطواويس».

توفي ليلة الجمعة بين العشاءين، في رمضان، وغسِّل سحَراً، ثم لم يتمكن الناس من إيصاله إلى قبره حتى صلاة الجمعة لكثرة من حضر جنازته، ثم دفن في مقبرة الإمام أحمد ببغداد.

من أقواله من قنع طاب عيشه، ومن طمع طال طيشه.

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء) للذهبي.

روى مالك بن دينار[1] عن الحسن البصري أن النبي ﷺ قال: «ما من عبد يخطب خطبة، إلا الله سائله عنها يوم القيامة، ما أراد بها؟»[2]

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من تعلَّم صُرْف الكلام ليسبي به قلوب الرجال (أو الناس)، لم يقبل منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[3]

ورأى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يعِظُ، وقد اجتمع الناس من حوله، فزجره، فقال الرجل: أتنهاني أن أعظ الناس وأذكرهم؟ فقال أمير المؤمنين: إني أخشى أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا.

فخشي رضي الله عنه على الرجل -وقد اجتمع من حوله الناس، وظهرت عليه علامات النشوة- أن تذهب شهوة الحديث بنفسه، فيكسب إثماً من حيث يحسب أنه محسن.

---

(١) سترد ترجمته، ص٨٧.

(٢) رواه البيهقي وابن أبي الدنيا بإسناد جيد؛ وهو في الحلية، ٢/ ٣٨٦.

(٣) سنن أبي داوود، رقم (٥٠٠٦).

ومرَّ أمير المؤمنين علي رضي الله عنه برجل يتكلم على الناس، فقال: «هذا يقول: اعرفوني»، يعني أنه - بكلامه- يُظهر نفسه، ولا يُظهر الحقّ.

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي:

«وصف بعضهم الأبدال[١] فقال: لا يتكلمون حتى يُسألوا، وإذا سُئلوا ووَجدوا من يكفيهم سكتوا، فإن اضطروا أجابوا وكانوا يعدّون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية»[٢]

ولهذا فقد كان الربانيون الكُمَّل، شديدي التفتيش في

(١) روى البيهقي وغيره عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «إنَّ أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال، ولكن إنما دخلوها برحمة الله، وسخاوة الأنفس، وسلامة الصدر، ورحمة لجميع المسلمين». وقد رويت في ذلك المعنى أحاديث أخرى تحدد عددهم بأربعين، وأنهم في الشام، وأن العذاب يصرف عن أهل الشام بهم، وللإمام السيوطي جزء جمع فيه الروايات المتعلقة بهذا الموضوع، ودفع به قول من قال إن خبر الأبدال لا أصل له، وسمّى الكتاب (الخبر الدال على وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال).

(٢) إحياء علوم الدين، ١/ ٦٩

نواياهم عندما يعرض لأحدهم مناسبة للكلام، فإن ظهر لأحدهم أنه يتكلم إظهاراً لعلمه، واستعراضاً لبيانه ولَسَنه، فإنه يسكت، ويضرب عن الكلام حتى تتغير نيته، ويصبح الغرض من الكلام خالصاً لله، لا تشوبه شائبة دنيا؛ من شهرة أو غلبة أو إفحام خصم بقصد التلذذ، ونحو ذلك من الأغراض الدنيوية، فإذا اطمأن لذلك، تكلم بكلمات معدودة، من غير إطناب ولا تصنّع، ولتصبح هذه الكلمات دستوراً للناس من بعده، وتجري فيهم مجرى الأمثال والحكم، وليسري خيرها في الناس إلى يوم القيامة، وما ذلك إلا لأنها كلمات خرجت من قلبٍ صادق، وما قصد قائلها بها إلا تصديق الله له، لا تصديق الناس.

قال الحسين بن محمد البغدادي: سمعت أبي يقول: وردت على بشر بن الحارث، فقعدت معه ملياً فما زادني على كلمة: «ما اتقى اللهَ من أحب الشهرة»[1]

وربما جلس بعض الطلبة إلى بشر هذا -قدس الله روحه- فطلبوا منه أن يحدثهم، فيقول: نفسي تشتهي

(١) مجمع الأحباب، ٤/١٣٦

التحديث فلا أعطيها شهوتها، فإذا ذهب ذلك حدثتكم[1]

وربما حدَّث -رحمه الله- فقال -لشدة تحريه وتفتيشه في باطنه-: «أستغفر الله، إنَّ لذكر الإسناد لخيلاء»[2]

وذلك أنه -رحمه الله- كان في عداد رواة الأحاديث عن النبي ﷺ، وكان طلبة العلم يرحلون إليه من الأمصار ليسمعوا منه ويرووا عنه.

---

(١) انظر: مجمع الأحباب: الواسطي، ٤/ ١٨٢ ونقل الواسطي عن بشر الحافي، أنه كان يعتذر عن التحديث أحياناً بقوله: «الرواة كثير»، وهذا يدل على أن بشراً كان يعلم أن الحجة قد قامت برواية غيره، وأن التبليغ عن النبي ﷺ ليس متوقفاً عليه، وأن امتناعه لا يدخل في باب كتمان العلم المنهي عنه شرعاً

ثم قال صاحب (مجمع الأحباب) -رحمه الله- بعد ذلك: «والعارف -لشدة خوفه وورعه- يمتنع عن كثير من أعمال البر خشية أن يدخل عليه ما يفسد عمله فلا يفي الربح بالخسران. وهذا باب غامض لا يدركه إلا البصير الناقد من سماسرة العلماء».

(٢) مجمع الأحباب، ٤/ ١٤١

وكان مالك بن دينار إذا حدَّث بقوله ﷺ: «ما من عبد يخطب خطبة إلا الله سائله عنها يوم القيامة؛ ما أراد بها؟» كان مالك يقول:

«تحسبون أن عيني تقرّ بكلامي عليكم، وأنا أعلم أن الله سائلي عنه يوم القيامة ما أردت به، فأقول: أنت الشهيد على قلبي لو لم أعلم أنه أحب إليك لم أقرأ به على اثنين أبداً»(١)

❖ من هو مالك بن دينار؟

من ثقات التابعين، علم العلماء الأبرار، ولكنه لم يكن يعد نفسه منهم، بل يقول: «إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحونَ فَأُفٍّ لِي وَتُفٌّ».

يعمل بالوِرَاقة، وهي مهنته التي كان يأبى أن يأكل إلا منها، له عبارات تدل على علو كعبٍ في فقه النفس، ودراية بمداخل الشيطان، وبمدخول العلم من خالصه.

ومن ذلك قوله: إذا تعلَّمَ العالِمُ العلم للعمل، كسره، وإذا تعلمه لغير العملِ، زاده فَخراً.

وقوله: «أنا للقارئ الفاخر أخوفُ منِّي للفاجر المبرز بفجوره؛ إنَّ هذه أبعدهما غوْراً».

(١) رواه البيهقي وابن أبي الدنيا بإسناد جيد؛ والحلية: ٢/ ٣٨٦

وقوله: «إنَّ الشَّيطانَ لَيَلعب بالقرَّاءِ كما يَلعب الصِّبيان بالجوز»

وقوله: «يَا عالِمُ، أنتَ عالِمٌ تأكل بعلمك، وتفخر بعلمك، ولو كان هذا العلمُ طلبْتهُ لله تَعالى لرُئِيَ فِيكَ وَفِي عَمَلِكَ».

وقوله: «تَلْقَى الرجل ومَا يَلْحَنُ حرفاً، وعمله كلُّه لَحْنٌ».

دَخلَ عَليهِ لِصٌّ، فما وجد ما يأخذُ، فناداهُ مالكٌ: لم تجدْ شيئاً من الدُّنيا، فترغَبُ في شيْءٍ من الآخرة؟ قال: نعمْ. قال: توضَّأْ، وصَلِّ ركعتين. ففعل، ثمَّ جلس، وخرج إلى المسجدِ، فسُئِل: مَنْ ذَا؟ قال: جاء ليسرق، فَسَرَقْنَاهُ.

لما حضرت الوفاة مالكاً رفع رأسه إلى السماء وهو يجود بنفسه، ثمَّ قال: «اللهمَّ إنَّك تعلم أنِّي لم أكنْ أُحِبّ البقاءَ في الدُّنيا لِفَرْجٍ وَلا لِبَطْنٍ».

توفي بالبصرة سنة (١٢٧هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء) للذهبي.

وقال الثوري: «فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد».

يقول حجة الإسلام الغزالي مفسراً قول الإمام الثوري:

«وذلك لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد،

أعظم من كل تنعم في الدنيا، فمن أجاب شهوته فهو من أبناء الدنيا»[1]

وماذا عساه يقال في الشهوة الخفية وحب اشتهار القول، في زمان صارت فيه الموعظة والمحاضرة يسمعها عشرات الملايين؟

وماذا يقال مع اشتداد المنافسة بين الفضائيات على تصنيع الدعاة؟

وماذا يقال مع اشتداد المنافسة بين (الدعاة) على قلوب الناس؟

ومع التهافت على حيازة الرتبة الأولى في نسبة المشاهدين، وأكثر الصوتيات مبيعاً؟

ومع ظهور مصطلح داعية سوبر ستار، ومادح النبي ﷺ سوبر ستار، وشيخ سوبر ستار؟

أي فتنة.

أي شهوة!!

(١) إحياء علوم الدين، ١/ ٦١

تذكر

- إذا كنت في مجلس وأردت أن تعظ الناس وتنصحهم، فَسَلْ نفسك وكن صادقاً هل تريد من الحديث نصح الناس، أم إظهار النفس؟
فإن كانت الأولى فاستعن بالله وتكلم، مستحضراً في قلبك تلك النية، واعلم أن استحضار تلك النية، والصدق فيها، هو أعظم ماتُسْتَفْتَح به قلوبُ الخلق ويُسْتَنزَل به المدد.
وإن كانت الثانية، فإن كُفيت الكلام بكلام غيرك، فلا عليك أن تسكت، وقد كُفيت المؤونة، وإن لم تُكفَ ذلك، وتعيَّن عليك الكلام، فليس أمامك إلا أن تتكلم، ولكن فلتعلمْ أنك على خطر عظيم، لا ينجيك منه إلا توبة صادقة من تلك النية الفاسدة.

- تذكر أن المدار في تأثير الكلام وتبليغ الرسالة، على صدق القلب، وليس على بلاغة اللسان.

- إذا تكلمت فأمسِكْ والناس متشوقون لكلامك، ولا تسترسل حتى يتمنى الناس سكوتك، وتذكر أن الكلام الكثير ينسي بعضه بعضاً، وهو دليل عجز وعَي، لا دليل فصاحة وبيان.

ذلة للتابع وفتنة للمتبوع

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «ما رُئِي رسول الله يأكل متكئاً قط، ولا يطأ عقبه رجلان»(١)

ويروى أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رأى أبي بن كعب مرة، وقد سار خلفه بعض الأتباع من الطلبة، فخفقه بالدِّرة وقال -وما أحسن قوله!-: «هذا ذلّة للتابع وفتنة للمتبوع»(٢)

(١) سنن أبي داوود، رقم (٣٧٧٠)؛ ومسند الإمام أحمد، رقم (٦٥٤٩).
ومعنى «لا يطأ عقبه رجلان» أي إنه ﷺ ما كان يرضى أن يمشي خلفه الجمع من الناس كما هو حال الأتباع والخدم مع سيدهم.

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء. وهو مروي أيضاً عن ابن مسعود كما في المصنف لابن أبي شيبة، رقم (٢٦٣١٤).

وكان إبراهيم بن الأدهم وسفيان الثوري -رحمهما الله- يتكلمان على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير، فإذا كثر الناس انصرفا[1]

وكان الإمام النووي يوصي طلابه أن يأتوا متفرقين في أعداد صغيرة، حتى لا تعظم حلقته، ويكبر عدد من فيها، فإذا درّس، جلس في عطفة المسجد، ويقول: النفس تستحلي رؤية الناس لها وهي تدرِّس في صحن المسجد أو صدره[2]

وكان محدث الشام الأكبر الشيخ العالم العامل بدر الدين الحسني* ينهى الناس، وينهى طلابه، أن يسيروا خلفه، بل يسير هو خلفهم، ويجعلهم قدامه.

❖ من هو محمد بدر الدين الحسني؟

المحدّث الأكبر، عالم العلماء، وشيخ مشايخ الشام، يرى فيه كثير من المؤرخين أنه أعظم شخصية علمية ظهرت في

(١) ذكره في الإحياء، ١/ ٧٠، وانظر كذلك أخبار هذين الإمامين في: (سير أعلام النبلاء)؛ و(صفة الصفوة).
(٢) انظر: لواقح الأنوار، ص١٩

الشام -بل في العالم الإسلامي- من قرون عدة، ويصفه معاصروه فيقولون: هو سنة النبي ﷺ تمشي على الأرض.

له مصنفات جليلة، ما كان يرضى أن يكتب اسمه عليها، ولا يمكِّن أحداً من تقبيل يده، ولا يرضى أن يقوم له أحد، أو أن يخدمه أحد، أو يمتدحه أحد، أو يمشي خلفه أحد، ولا أن يجلس أحد قدامه على هيئة المتشهد في الصلاة.

يقبل على أهل المعصية إقبال الأب الشفوق، ويزور المدارس والسجون، ويطلب الدعاء من الأولاد والمساجين.

هرب من الجاه، فازدحم كبراء الدنيا على باب غُريفته المتواضعة في دار الحديث، يطلبون الإذن بالدخول عليه.

ومن أعجب ما رواه عنه تلامذته، أن السلطان عبد الحميد دعاه للآستانة لحضور مجمع لعلماء الدولة العثمانية، ووجَّه مع الدعوة سفينة لتحمله إلى الآستانة من بيروت، فلما دخل عليه مبعوث السلطان، ما زاد الشيخ على أن قال: «ما في إذن يابا»، وبعد أيام ثلاثة، أرسل خطيب مغمور، لقرية نائية في دمشق، يقال له الشيخ أحمد السوسي دعوةً للشيخ بدر الدين لزيارة القرية، فقال الشيخ لأحد تلاميذه: «يابا الشيخ السوسي دعاني، هاتوا لنا عربة»، وذهب رحمه الله إلى القرية من فوره.

توفي بدمشق سنة (١٣٥٤هـ).

▪ ترجمة مقتبسة من كتاب (عالم الأمة وزاهد العصر) لرياض المالح؛ و(المحدث الأكبر) للشيخ صالح الفرفور؛ وكتب أخرى.

هكذا هي سيرة النبي ﷺ وسيرة العلماء والدعاة من ورثة الأنبياء.



وأما اليوم، فإنّ كثيراً من الطلبة و(الدعاة)، ما عادوا يرون أن ذلك هو ما ينبغي أن يأخذوا به أنفسهم، وصار للكثير منهم منهج مختلف عن منهج أولئك الصالحين الأخيار، بل قد تسمع من بعضهم انتقاداً لذلك المنهج بأنه قديم لا يناسب الناس في زماننا هذا

وهكذا، فأنت ترى كثيراً من (الدعاة) يأنفون من أن يحضر أحدهم إلى المناسبات التي يدعى إليها من غير أن يسير من ورائه شخصان أو أكثر، وكلما ازدادوا كان في ذلك تعظيم لشأن الدين أكثر، كما يبررون، فإذا قام، أحب أن يقوموا بقَومَتِه، وإذا قعد، أحب أن يقعدوا بقَعدتِه، ويجتهدوا بخدمته، ويأتمروا بإشارته.

وبعضهم يعظُم غمُّه إذا دخل مجلساً فوجد الطلاب والمستمعين فيه قلة، والحلقة صغيرة، فإذا كثر العدد، وعظمت الحلْقة، انشرح صدره وانطلق لسانه، وربما لم يخطر بباله أن تلك الفتوح، سببها التذاذه بكثرة من يستمع إليه ويعظِّم قوله، وأن تلك الفتوح ما كانت لتظهر لو كانت الحلقة صغيرة، وكأن القَبول مَنوط بكثرة الأتباع لا بصدق المتبوع، وبكثرة من يسمع، لا بصدق من يتكلم.

وبعضهم يشتد تغيُّظه وغَيرته إذا نُمي إليه أن فلاناً من أتباعه قد (تسرب) خارج الحلْقة، وترك الجماعة إلى غيرها، أو اتخذ له شيخاً آخر فلزمه، وصار يأخذ عنه، ثم يخدع هذا (الغيور) نفسه قبل أن يخدع الناس، ويقول إن غيرته تلك لم تكن لنفسه، بل لله وللعلم وللوفاء الذي تجرد منه ذلك (المتسرب)، يوم أن استبدل بمعلمه القديم معلماً آخر.

وبعضهم يشتد سكره إذا علم أن عدد من يستمع لخطبته، أو يقرأ كتبه، أو يتابع برنامجه في محطة من المحطات، أو يستمع لإنشاده وتلاوته، قد بلغ كذا وكذا، ثم يصير بعد ذلك يكرِّر ذلك، ويفتخر به، بمناسبة ومن دون مناسبة، بل ويستثمره استثمار تاجر خبير، ولم لا، وهو صاحب الجمهور العريض؟ ولم لا، وهو الذي يزدحم الناس عليه، ويتسابقون إليه ليتحدث إليهم أو ينشد أو يتلو القرآن؟

والحق الذي لا مراء فيه أن أكثر ما ذكر -وغيره كثير- إنما هو عَرَض من أعراض الرياء وحبّ الاشتهار، وأكل للدنيا بالآخرة، وهو من جملة ما يلبِّس به إبليس على كثير من طلبة العلم والدعاة، أصلح الله حالي وحالهم.

يقول ابن الجوزي في (تلبيس إبليس):

«ومنهم من يفرح بكثرة الطلاب، ويلبِّس عليه إبليس بأن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، وينكشف هذا التلبيس بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه، ثقل ذلك عليه، وما هذه صفة المخلص بالتعليم»[١]

وقد حدثنا سيدنا رسول الله ﷺ أن النبي يبعث يوم القيامة وليس معه من الأتباع إلا الرجل والرجلان، بل إنّ منهم من يبعث وليس معه أحد[٢]

---

(١) تلبيس إبليس، ص١٥٨

(٢) الحديث رواه الشيخان عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ؛ قال: «عُرِضَتْ عليَّ الأُمَمُ، فرأيت النبيَّ ومعه الرهطُ، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ ليس معه أحد، إذْ رُفِعَ لي سَوَاد عظيم، فظننت أنهم أمَّتي، فقيل لي: هذا موسى وقومُه، ولكن انْظُر إلى الأُفُقِ، فنظرتُ، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انْظُرْ إلى الأفقِ الآخَر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». الحديث.

فهل حطّت قلة الأتباع من منزلتهم؟ وهل سلبت منهم نبوَّتهم؟ وهل انتقص قدرهم عند الله تعالى بقدر نقصان عدد من آمن بهم من الناس؟

إنّ الدعوة -والعمل لله عموماً- ليس عملية انتخابية، يفوز فيها من نال أصواتاً أكثر، وحصَّل شعبية أكبر. لا لا، ليس الأمر كذلك، بل قد يكون الفائز في ميادين العمل لله شخصاً لا يعرفه أحد. ولكنّ الله يعرفه.

وقد يبني الداعية جماعة كبيرة، وقد يجذب إليه ما لا يحصى من الأتباع والمعتقدين، ولكن ما لم يكن ذلك العمل مبرّأً من حظوظ النفس، متعالياً عن الأغراض الدنيوية، فعمله هذا فتنة له، ووبال عليه.

وما لم يكن شديد التفتيش في نفسه، كثير الاتهام لها، فيوشك أن يهلك من حيث يظن أنه ناجٍ.

ويضرب ابن الجوزي -وهو واحد من أشهر الوعاظ، وأكثرهم تأثيراً عبر تاريخ الإسلام- مثالاً عن ذلك التفتيش والاتهام للنفس، فيقول:

«ولقد جلست يوماً فرأيت حولي أكثر من عشرة

آلاف، ما فيهم إلا من رقّ قلبه، أو دمعت عينه، فقلت في نفسي: كيف بك إن نجوا وهلكت!؟»[1]

كيف بي إن نجوا وهلكت؟

ما أحراني وإياك -أخي- أن نكرِّر هذه العبارة في كل مرة تستحسن فيها نفوسنا كثرة الأتباع والطلبة من حولنا

ولسيدي الشيخ أحمد الكبير الرفاعي* كلام يختصر به كل ما سبق، يقول فيه:

«كم طيرت طَقْطقة النعال حول الرجال من رأس، وكم أذهبت من دين، والرجلِ من جمعَ الناس على الله، لا على نفسه، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه، وبقي قلبه بمعزل، هو ذاك البطلِ الفارس»[2]

❖ من هو أحمد الرفاعي؟

هو الإمامُ، القُدْوَةُ، العَابِدُ، الزَّاهِدُ، أحمد بن علي الرفاعي، صاحب الذكر العطر عند العام والخاص، ينتهي نسبه إلى سيدنا رسول الله ﷺ، نشأ يتيماً، وتلقى العلوم على مشايخ

(١) صيد الخاطر، ص٢٠٠

(٢) بوارق الحقائق.

عصره، فبرع فيها حتى لقب بالكبير، معظَّم عند الأكابر والأصاغر، بعيد الذكر ذائع الصيت، ولكن ذلك لم يزده إلا حطاً من شأن نفسه وتواضعاً، فلا يتصدر في مجلس، ولا يمكِّن أحداً من تقبيل يده، ولا يقبضها عمَّن يريد مصافحته، ولا يستخدم أحداً من الطلبة في حاجات نفسه، ولا يقبل من أحد أن يخدمه، ويقول: كيف يكون للخادم خادم؟ وكم كان يُقْسِم على إخوانه بأن يدلُّوه على عيوبه، فإذا نبَّهه أحد لشيء، ألقى إليه السمع وشكره ولو كان صغيراً، وحصل مرةً أنه مرَّ على صبيان يتخاصمون، فسأل أحدهم: ابنُ مَنْ أنت؟ فقال له الصبي: «أيش فضولك؟» (أي ليس من شأنك أن تعلم ابن من أنا)، فصار يكرِّرها ويقول: «أدبتني يا ولدي، جزاك الله خيراً».

له أملاك وأوقاف عظيمة، ما كان يمسك من غلالها شيئاً، ولا يدَّخر لنفسه منها شيئاً، ويرضى لنفسه من ذلك بما يقيم به أَوَد جسده النحيل من المطعم والملبس.

■ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء)؛ ومن كتاب (الإمام السيد أحمد الرفاعي) للسيدين يوسف ومصطفى الرفاعي.

تذكر

- لا تفرح بكثرة الطلبة والأتباع، ولا تجعلها لك هدفاً، فإن قدر الله أن يكثر طلابك ومستمعوك، وأن يطير صيتك في الناس، فاعلم أن باباً عظيماً من أبواب الفتنة قد فتح عليك، وتذكر أن كثرة الأتباع لا تعني بالضرورة كثرة الأجر.
- لا تحزن إن وجدت أن بعض طلبتك قد التزموا معلماً سواك، بل امحض لهم النصح إن وجدت ذلك المعلم خيراً منك وأعلم، وانصحهم بملازمته والصدق معه، واجعل ذلك مبرراً ومحفزاً لك للبحث عما عساه يكون عيباً أو نقصاً فيك، قد خفي عليك وظهر لإخوانك، فانفَضُّوا عنك بسببه، فاجتهد أن تبحث في ذلك على الصدق، لا أن تنسب من تركك إلى الجفاء، وقلة الوفاء وعدم التوفيق، فإنك إن فعلت ذلك، حِيل بينك وبين عيوب نفسك، حتى يراها كل من حولك فيك وتبقى أنت متعامياً عنها، وهذا -لعمري- من الخِذلان.

• راقب نفسك، فإن وجدتها تنشرح بمسير الطلبة من خلفك، وتسابُقِهم لخدمتك، فانْءَ بنفسك عن ذلك، وانهَ إخوانك وتلامذتك عنه، ولا تشجعهم عليه، فضلاً عن أن تطلبه منهم، تصريحاً أو تلميحاً، فإنْ وقع شيء من ذلك بغير رغبة منك، فأحضر نفسك كراهيَتَه، واستحيي من الله تعالى، إذ سترَ عيوبك عن الخلق حتى مشوا خلفك وخدموك، مع عدم أهليتك لذلك.

أسأل الله أن يسترني وإياك في الآخرة كما سترنا في الدنيا

د. وأخواتها..
أو صكوك الغفران(١)

لم يكن المسلمون قبل أن تقتحمهم رطانة الفرنجة، يعرفون تلك الشهادات والألقاب الأعجمية، ولم يكونوا قد سمعوا بشيء اسمه ليسانس ولا ماجستير ولا دكتوراه، وما كانوا يدرون ما الدكتور وما البروفيسور.

وما كانوا يطمئنون لعلم العالم وتقواه بما يحمله من إجازات، فضلاً عن أن تكون تلك الإجازات بلسان العجم، الذي لم يكونوا يأبهون به، ولا بمن يرطن به.

---

(١) صكوك الغفران هي وثائق كان يمنحها البابوات في القرون الوسطى لرعايا الكنيسة الكاثوليكية يملِّكونهم بموجبها قطعاً من الجنة ويتعهدون فيها بإسقاط التبعات والآثام عنهم يوم القيامة.

وقد يعظم العالم، ويرتقي في عيون العامة جداً، حتى يكونوا هم من يخلعون عليه من ألقاب التفخيم ما يرونه أهلاً له، لما رأوا من علمه وعمله وصلاحه وتقواه وزهده. أما أن يسعى ذلك العالم لتحصيل ذلك اللقب بنفسه، فضلاً عن أن يتبرّم إن لم يخاطَب به، فهذا أمر لا يكاد يُسمع بمثله بين العلماء، بل إن الإمام النووي -رحمه الله- لما شاع بين الناس تلقيبه بمحيي الدين، صار يقول: لا أجعل من لقبني بذلك في حِلٍّ، تورّعاً منه، رحمه الله، وتواضعاً عن أن يوصف بما يرى أنه ليس أهلاً له، وإن كان -رحمه الله- جديراً بهذا اللقب، والله حسيبه.

ثمّ لمّا دخلت قوانين الغرب وعاداتهم إلى بلادنا، دخل -فيما دخل- قانونٌ، يجعل كل ذي علم لا يُعترَف بعلمه، ما لم تشهد له بذلك ورقة صادرة عن جهة تعترف بها الدولة، يصْدق هذا على الطبيب والمحامي والمدرس ووو. ، ويصدق أيضاً على المشايخ والخطباء وعلماء الشريعة.

وهكذا، استُبعد من دائرة التعليم الرسمي كل العمائم

التي حَوَتْ تحتها علوم الدنيا، وحلّ محلّهم الأفندية، مِن حَمَلَة الشهادات، ولا سيما التي يرطن بها اللسان أكثر، كالماجستير والدكتوراه.

ثم تطور أمر تلك الشهادات (ولا أدري إن كان هذا يسمى تطوراً)، فصارت في أذهان الناس رديفة لتقوى الله والتدين والمَكِنة العلمية، فإذا قيل: فلان دكتور في الشريعة، عنَوا بذلك أنه قريب من الله، قريب من الجنة، بعيد عن الجهل، بعيد من النار.

ثم تسرَّب هذا الداء من العامة إلى الخاصة، فصار كثير من طلبة العلم (أو قل طلبة الدنيا)، يتنافسون فيها ويعظمونها، ويبذلون فيها الغالي والرخيص، ويتفاخرون بها، من حيث هي ألقاب، لا من حيث دلالتها على علم صاحبها، فصارت غاية في نفسها، بل صارت تلك الألقاب يتوصل إليها في كثير من الأحيان بطرق تنادي على صاحبها بقلة الدين، وكثرة الجهل، بدلاً من أن تكون دليلاً على علمه ودينه، فمرّة تُشترى بالدولارات، ومرّة تُنال بالمجاملات، وأخرى تحصل بأبحاث مسروقة، أو بأبحاث هزيلة مخجلة، تُرسل إلى بلاد

(الواق الواق) لينال صاحبها تلك (الكرامة الكبرى)، وذلك الصك من صكوك الغفران؛ أعني تلك الـ(د) العظيمة، أو واحدة من أخواتها

وما إن ينالها ذلك الطالب، حتى تصير عنده أهم من اسم أبيه وجده، أو تصير عنده كأنها حرف من حروف اسمه، فلا يذكر اسمه إلا ويذكر تلك الدال قبله، ويجعلها في خطاباته ومراسلاته، وعلى باب داره، وكم أعرف من أولئك مَنْ يمتعض أشدّ الامتعاض، إذا لم يخاطب أو يقدَّم للناس بها، ولا سيما في المحافل العامة.

ومن جديد، فالحُجّة التي يُقنع بها ذلك الإنسان نفسه، أو التي تقنعه بها نفسُه الأمَّارة، أن ذلك ليس تعظيماً لشخصه، ولكنّه تعظيم للعلم الشرعي، وإنما يراد من تعريف الناس (بمقامه) و(منزلته)، أن يحملهم ذلك على تعظيم العلم، والإقبال على الهداية التي سيجريها الله على يديه لأولئك الناس، فإنّ من شأن الناس أنهم يجلّون صاحب الأوصاف الفخمة، وينصتون له، ولا يتطاولون عليه أو يقاطعونه، فيكون من ذلك انتفاعهم به، وإقبالهم بسببه على الله.

هكذا يُقنع المسكين نفسه. ويُقنع مَن حوله.

على أن حال أكثر هؤلاء -أصلح الله حالنا وحالهم- هو كما قال القائل يصف تجربته في الجامعة:

دخلت فيها جاهلاً متعلماً

وخرجت منها جاهلاً دكتورا

إن الخبير في اختصاص من اختصاصات الدنيا، كالطبيب والمهندس والفني، عندما يستعرض ما لديه من شهادات وألقاب وخبرات، إنما يقصد أن ينال ثقة الناس، ليزيد كسبه من المال والشهرة، ولا ضير في ذلك، لأن المسألة هنا مسألة دنيا تنال بالدنيا (على ألا يكون في ذلك تدليس وكذب طبعاً)، ولكن ماذا عساه يريد من يصمّ الآذان باستعراض شهاداته وألقابه -بل حتى إجازاته الخطيّة- إن كان الكلام على بضاعة الآخرة، وأي وزن لتلك الأوراق في الميزان يوم القيامة؟

وقد تنبه العلماء لهذه العلة التي تعْرِض لبعض طلبة العلم، وبيّنوا عُوارها ومدخل الشيطان منها

فقد طلب أحد الطلبة من الإمام أحمد رحمه الله، أن

يكتب باسمه (أي باسم الطالب) إلى محدِّث من المحدِّثين، حتى يتوصل بذلك إليه، ويسهل دخوله عليه، فكتب الإمام رحمه الله: «هذا رجل يكتب الحديث»، فقال الطالب: يا أبا عبد الله، لو كتبت "من أهل الحديث"، فقال الإمام: «أهل الحديث عندنا من يستعمل الحديث»[1]

فبيَّن -رحمه الله- أنّ ثمّة فرقاً كبيراً بين العمل بالحديث، وبين لقب طالب حديث.

وقال سفيان الثوري*؛ أمير المؤمنين في الحديث: «ليس طلب الحديث من عُدّة الموت، لكنّه علّة يتشاغل بها الرجل».

❖ من هو سفيان الثوري؟

سيّد أهل زمانه علماً وعملاً، وأمير المؤمنين في الحديث بلا منازع.

كان رحمه الله -على علوِّ كعبه في العلم- عظيم التواضع، فما رُئي في صدر مجلس قطّ، إنّما كان يقعد إلى جنب الحائط،

(١) انظر: أدب الإملاء والاستملاء: السمعاني، ص١١٠

ويجمع بين ركبتيه، ولا يحب أن تعظم حلقته، وسئل مرة عن غاية التواضع، فقال: «ألّا تلقى أحداً إلا رأيت له الفضل عليك»، وربما رآه أحدهم في منام صالح فأخبره، فيقول -متهماً لنفسه-: «أنا أعْرَفُ بنفسي من أصحاب المنامات».

وكان -رحمه الله- رأساً في الزهد، داعياً له بحاله ومقاله، ومع ذلك فقد كان لا يحب للمشتغل بالعلم ألّا يكون له كفاية، حتى لا يُستذلَّ، وحتى يصون دينه بماله.

روى عنه الأصفهاني أنه كان يقول: «يعجبني أن يكون صاحب الحديث في كفاية، فإنَّ الآفات إليه أسرع، وألسنة الناس إليه أسرع».

وروى البغدادي في (الجامع لأخلاق الراوي) (١/ ٥٤) عن بعض طلبته: «كنا عند سفيان الثوري، فكان إذا أتاه الرجل يطلب العلم، سأله: هل لك وجهُ معيشة؟ فإن أخبره أنه في كفاية، أمره بطلب العلم، وإن لم يكن في كفاية، أمره بطلب المعاش».

ورآه رجل مرة يمسك بيده دنانير، فعجب لذلك، مع ما عُرِف عنه من زهد وتقلّل من الدنيا، فقال: يا أبا عبد الله! تمسك هذه الدنانير!؟ قال: اسكت، فلولاها لتَمَندل بنا الملوك. (أي لتمسحوا بنا كما يُتَمسح بالمنديل لإزالة الأقذار).

ودخل على جماعة من طلبة العلم مرةً، فقال: يا معشر القراء، ارفعوا رؤوسكم، ولا تزيدوا التخشُّع على ما في القلب، فقد وضح الطريق، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

ومن كلامه: «ما رأيت الزهد في شيء أقلَّ منه في الرئاسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإن نوزع الرئاسة، حامى عليها وعادى».

ومنه: «زيِّنوا العلم بأنفسكم، ولا تزيَّنوا بالعلم».

توفي في البصرة سنة (١٦١هـ).

▪ ترجمة مقتبسة من (حلية الأولياء) للأصفهاني؛ و(سير أعلام النبلاء) للذهبي.

وقال الإمام الذهبي معلقاً على كلمة سفيان السابقة:

«صدق والله، إنَّ طلب الحديث شيء غير الحديث، فطلب الحديث اسم عرفي لأمور زائدة على تحصيل ماهية الحديث، وكثير منها مَراقٍ إلى العلم، وأكثرها أمور يُشغف بها المحدّث؛ من تحصيل النسخ المليحة، وتطلب العالي، وتكثير الشيوخ، والفرح بالألقاب والثناء، وتمني العمر الطويل ليروي، وحب التفرد، على أمور عديدة لازمة للأغراض النفسانية، لا الأعمال الربانية، فإذا كان طلبك الحديث النبوي محفوفاً بهذه الآفات، فمتى خلاصك منها إلى الإخلاص؟»[١]

(١) تذكرة الحفاظ، ١/ ٢٠٥

وقد سبق أن الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله كان يقول لطلابه:

«احذر أن تنشر علمك ليصدقك الناس، وانشر علمك ليصدقك الله تعالى، اعملوا حتى يصدقكم الله لا ليصدقكم الناس».

أَوَيصدقنا ربنا إن كان أحدنا حائزاً على أعظم الشهادات العلمية، وأفخم الألقاب الأرضية؟ أَوَتُراه يبالي بذلك كله إن اطلع -وهو المطّلِع على السرائر- في قلب أحدنا، على مثقال ذرة من كبر أو غرور أو رياء أو حب للظهور أو رغبة في التفرد، تقترن به تلك الشهادات والألقاب؟

ماذا لو كان الواحد منا يُنادى في الأرض الدكتور الخطير، والعلّامة النِّحرير، والداعية الشهير، ولكنه في الملأ الأعلى يُنادى بالجاهل المغرور، والمرائي المثبور؟

❖ من هو الشيخ أبو الحسن الشاذلي؟

الولي الزاهد الكبير علي بن عبد الله، مؤسس الطريقة الشاذلية، وهي مدرسة من أكثر المدارس تأثيراً وانتشاراً في التربية والسلوك.

يقول فيه الشيخ ابن دقيق العيد «ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي». وكان أكابر العصر يحضرون مجلسه في الكاملية بالقاهرة؛ كالعز بن عبد السلام، وعبد العظيم المنذري، وابن الحاجب وابن الصلاح، وابن دقيق العيد، وربما استمع له العز مرةً وهو يتكلم على معاني الرسالة القشيرية، فخرج من مجلسه وهو يقول: «اسمعوا إلى هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله».

كان -رحمه الله- يعمل بالزراعة ويأكل منها، ويعتدل في لباسه وطعامه ومركبه كعامة الناس.

يقول تلميذه وخليفته أبو العباس المرسي: دخلت عليه يوماً، فقال لي: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله، فقلت في نفسي: إن النبي ﷺ قبل الهدية وقال: «ما أتاك من غير مسألة فخذه»، فقال الشيخ: كأنك تقول إن النبي ﷺ قبل الهدية، وقال: «ما أتاك من غير مسألة فخذه»، إن كنت مقتدياً به في الأخذ، فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ويثيب عليه، فإن تقدَّست نفسك هكذا فاقبل، وإلا فلا.

من كلامه -رحمه الله-: من أقبل على الخلق الإقبال الكلي قبل بلوغ درجات الكمال، سقط من عين الله تعالى، فاحذروا هذا الداء العظيم، فقد تعلق به خلق كثير، وقنعوا بالشهرة وتقبيل اليد، فاعتصموا بالله، يهدكم الله إلى الطريق المستقيم.

ومن كلامه: لا تشم رائحة الولاية وأنت غير زاهد في الدنيا وأهلها.

ومن كلامه: «لا يصح لك مقامات الرجال حتى لا يبقى في قلبك تعلُّق بعلمك ولا اجتهادك، وتيئس من الكل دون الله تعالى».

توفي بصحراء عيذاب في طريقه إلى الحج سنة (٦٥٦هـ). يقول ولده الشيخ شرف الدين: بات تلك الليلة متوجهاً إلى الله، ذاكراً اسمه، يقول: إلهي إلهي، فلما كان السحر سَكَن، فظننَّا أنَّه نام، فحركناه فإذا هو ميت.

ترجمة مقتبسة من (طبقات الأولياء) لابن الملقِّن، و(لطائف المنن) لابن عطاء.

■ ترجمة مقتبسة من (طبقات الأولياء) لابن الملقِّن؛ و(لطائف المنن) لابن عطاء.

تذكر

- تذكر أن اللقب كل اللقب، والعلم كل العلم، هو ذاك الذي يأتيك من حضرة الله سبحانه، فإياه فاقصد، وله فاجعل جهدك واجتهادك حتى يصدِّقك، فإذا صدّقك هو سبحانه، فلا عليك أن يكذبك غيره، على أن الله لا يصدق عبداً في دعواه، إلا وألبسه رداء الصدق بين الناس، ووضع له القَبول في الأرض، ولو كان أمياً، وصلى الله على النبيّ الأميّ.
- تذكر أن تلك الألقاب العلمية إنما جعلت وسيلة للتحصيل والتعليم، لا غاية لذاتها، فإذا انعكس الأمر في ذهنك، وصارت الشهادة واللقب غاية، فصرت لا تبالي بالطريق التي تصل بها إليها، فاعلم أنك تسير في الاتجاه المعاكس، وأنك طالب دنيا، فلا تخدع نفسك -فضلاً عن أن تخدع الناس- وتقول أنا طالب علم وطالب آخرة.

- تذكر أن الانشراح لتلك الألقاب الأجنبية، والافتخار بها، والشعور بالقوة والاعتزاز عند تحصيلها، لا يخلو صاحبُه من عقدة نقص، غالباً ما يعانيها الضعيف أمام القوي المتغلب -الذي هو هنا الغرب- بكل مصطلحاته وألقابه وثقافته، وإلا فأين لقب دكتور من لقب شيخ؟ وأين لقب بروفيسور من لقب عالم[1]؟

على أن الألقاب كلَّها؛ عربيها وعجميها، ليست غاية، وإنما هي وسيلة للتحصيل العلمي، والتحصيل العلمي ليس غاية في ذاته، بل هو غاية لإرضاء الله، الذي هو غاية الغايات، وبه فليفرح المؤمنون.

---

(١) كان الجامع الأزهر -ثبت الله أركانه- يمنح طلابه درجات علمية هي درجة العالِمية (من عالِم)، والعالمية بدرجة أستاذ، وهما درجتان تقابلان درجة الماجستير والدكتوراه، وكان ذلك قبل ما سمي بإصلاح الأزهر في القرن الماضي، الذي أنَّث (الجامع) فجعله (جامعة) كسائر الجامعات، ويا ليت تلك الألقاب العلمية بقيت، وإذ لم تبق فليتها ترجع، لما تحمله من دقة الدلالة، ولما فيها من اعتزاز بالشخصية الإسلامية واللسان العربي.

• تذكر أن حصولك على اللقب العلمي من غير أن تكون جديراً به علمياً، قد يسلكك في زمرة من يحبّ أن يُحْمد بما لم يفعل، ومن يتشبَّع بما لم يُعطَ، وقد قال تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُوا۟ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُوا۟ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٨٨].

وقال ﷺ: «المتشبِّع بما لم يُعْطَ، كلابس ثوبَي زور»[1]

فانْءَ بنفسك عن ذلك، وكن منه على حذر وتيقظ.

(١) رواه البخاري، رقم (٥٢١٩).

لا تُحصي... فيحصيَ الله عليكِ

عَن أَسماءَ بنتِ أبي بكرٍ، قالتْ: قال لي رسول الله ﷺ:

«أَنْفِقِي يا أَسْماءُ وأَرْضِخِي هَكَذا وَهَكَذا وَهَكَذا، وَلا تُحْصِي فيُحْصِي اللهُ عليْكِ»[1]

(١) رواه البخاري، رقم (٢٥٩١)؛ ومسلم، رقم (١٠٢٩)، والمعنى فيه أنك أيها العبد لا ينبغي أن تعدَّ على الله ما تنفقه على خلقه، فكما أنه سبحانه رزقك بغير حساب ولا عدٍّ، فعليك أنت أيضاً أن تنفق بغير حساب ولا عدٍّ، فأنت إنَّما تنفق من خيره وصدقاته عليك، فإن أحصيت أحصى الله عليك، وطالبك بأن تنفق بقدر ما يُنفق عليك، وطالبك مقابل كل نعمة بشكر يليق بها، ولا شكَّ أن هذا مما لا يطيقه مخلوق.
والإنفاق في الحديث يشمل الإنفاق من المال أو الجهد أو العلم، ولذلك قال المناوي في (فيض القدير)، ٣/ ٨٠: =

كثيراً ما نسمع من بعض الدعاة والمعلمين كلاماً من قبيل: «تخرّج على يدي كذا وكذا من الأشخاص»، و«قرأ عليَّ كذا وكذا من الطلبة، وفلانٌ وفلان - ويذكرهم بأسمائهم- كانوا طلاباً عندي»، أو يقول: «أنا في الدعوة إلى الله من كذا وكذا عاماً، وتلاميذي أو مشاهدي برامجي يُعدّون بكذا وكذا، وكتبي طبع منها كذا، وأثنى عليها من الخلق كذا». إلى غير ما هنالك من العبارات التي يستعرض فيها من يقولها إنجازاتِه وبطولاتِه.

وهذا الاستعراض، إن كان ما يستدعيه هو الإحصاء، بقصد التخطيط الاستراتيجي، لتقويم العمل، وتحديد مكامن الخلل، وسبل التطوير، فهذا أمر محمود، فإن لم يكن ذلك هو الهدف، فعلى أي شيء يحمل هذا الكلام، إلا على الافتخار و إظهار التميُّز ومدح الذات!؟

= «وكثيراً ما يراد بالإنفاق في كلام الشارع الأعم من الزكاة والصدقة، فيشمل جميع وجوه الإنفاق؛ من المعارف والحظوظ التي تكسب المعالي وتنجي من المهالك».

وقد كان الشيخ أبو علي الدقاق* يردّد كلاماً، ما أحرانا وما أحرى أولئك المتفاخرين أن يعقلوه ويتدبروه، كان يقول رحمه الله:

«علامة أن الحق رفع عملك، ألا يبقى عندك، فإن بقي عملك في نظرك فهو مدفوع، وإن لم يبق معك فهو مرفوع مقبول»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/ ١٠][(١)]

❖ من هو الشيخ أبو علي الدقَّاق؟

هو الحسن بن علي النيسابوري الدقَّاق، الزاهد الورع، لسان وقته، وإمام عصره، شيخ الصوفية، وشيخ أبي القاسم القُشَيري، جمَعَ -رحمه الله- بين علم القلب وعلم اللسان، فكان معدوداً في المقدَّمين من أهل الولاية والتحقيق، أكثر القُشَيري في النقل من حاله وقاله في رسالته الشهيرة الموسومة بالرسالة القشيرية، ومما قاله فيه ثمَّة: «إذا قعدت لواقعة وقعت لي، لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة، فكما كنت أجلس كان يبتدئ بشرح واقعتي».

(١) هذا الفهم من الشيخ الدقاق مستنبط من إشارات اللفظ لا من عبارته.

له إشارات ولطائف في تفسير بعض آيات القرآن الكريم، ومن ذلك أنَّه كان يقول في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٢٩/٦٩]: «من زيَّن ظاهره بالمجاهدة، حسنَّ الله باطنه بالمشاهدة».

ومن ذلك قوله: «الشوق تمني الموت على بساط العوافي، كيوسف؛ لما أُلقي في الجبِّ لم يقل توفَّني، ولما أُدخل السجن لم يقل توفَّني، ولما دخل عليه أبوه وخرَّ له إخوته سجَّداً، وتمَّ له المُلك، قال: توفَّني مسلماً».

توفي بحدود سنة (٤٠٥هـ).

من كلامه.

«الذكر منشور الولاية، فمن وُفق للذكر فقد أُعطي المنشور، ومن سُلِب الذكر فقد عُزِل».

كان -رحمه الله- يبالغ في ترك الرفاهية، حتى إنَّه كان يأبى أن يستند إلى شيء، ويكثر من ذكر الموت كثيراً، وينشد:

أحسنت ظنَّك بالأيام إذ حسنت
ولم تخَفْ سوء ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

■ ترجمة مقتبسة من (الرسالة القشيرية) و(سير أعلام النبلاء) و(الوافي بالوفَيات).

قال الشيخ يوسف النبهاني عند تعرّضه لكلام الشيخ السابق:

«من كان لعمله وقْع عنده، كان جاهلاً، ولو عرف ربه لعلم أن طاعات الخلق في جنب جلال الله تقصير، وكل شكرهم في جنب آلائه ونعمائه قصور، وكل معارفهم وعلومهم في مقابلة عزته حيرة وجهل»(١)

فأي شيء بقي لنا بعد هذا كي نفخر به؟ وكيف لا يستحيي الواحد منا أن يحصي على الله طاعاته له، وكم اهتدى على يديه من ضالٍّ، وكم تعلَّم على يديه من جاهل، وكم من سنة قضاها في الدعوة له سبحانه، كيف يستسيغ الواحد منا ذلك في جنب الله، ولو أن محسناً أحصى على فقير صدقاته له، وأياديه عليه لتضجّر ذلك الفقير منه، وكره عطاءه، والله يقول: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٦٤]؟

فكيف يستسيغ الواحد منا ذلك في جنب الله، فيحصي عليه طاعاته وعباداته، وكأن المنّة له عليه سبحانه وتعالى؟

(١) جامع كرامات الأولياء، ص٢٥

إن الربَّانيين إذ يعملون لله يردِّدون بلسان الحال ولسان المقال:

إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟

وأنا الجاهل في علمي فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟

إلهي من كانت محاسنه مساوي، فكيف لا تكون مساويه مساوي؟[1]

فما أجراه الله على أيديهم، فلا ينسبون منه شيئاً لأنفسهم أصلاً، وإنما يشهدونه محض فضل له سبحانه، وإنما هم أبوابٌ ساق الله الخير إلى الخلق منها، وأي فضل للأبواب في ذلك الخير؟

هكذا يفكرون.

كنت أُلمّ في بعض الأحيان بمجلس لشيخ من مشايخ الإقراء في دمشق، فربما جاء ذكر شخص ممن يشار إليهم بالبَنان في البلد، فيقول له بعض من في المجلس:

(١) الحكم العطائية. والمناجاة الإلهية: أول المناجاة.

«يا سيدي، فلان الفلاني قرأ عليكم كذا وكذا»، فلا يتذكره الشيخ، ولا يظهر منه أدنى مبالاة بذلك، ولا أدنى اهتمام، وكم تكرر ذلك منه رحمه الله.

وما ذلك إلا لأنه كان لا يشهد عمله، ولا ينتظر منه ثمرة في الدنيا، بل كان -رحمه الله- يقرأ عنده الطلبة، فقلما يسأل واحداً منهم عن اسمه أو عن عمله، بل يجلس في مجلسه مطرقاً، يسمع ويضبط القراءة للواحد تلو الواحد، حتى ينفضّ المجلس، ويتخرّج على يديه الواحد تلو الواحد، لا يرى لنفسه أدنى فضل في ذلك، ولا يشغل باله كم طالباً أقرأ، وكم ساعة جلس للإقراء.

يقول ابن عطاء رحمه الله* في (الحِكَم) مقرراً هذا المعنى:

«أنت إلى حِلمه إذا أطعته، أحوج منك إلى حلمه إذا عصيته».

قال الرَّندي في شرحه لهذه الحكمة:

«شرفُ العبد ورفعة قدره إنما تكون بنظره إلى ربه عز وجل، وإقباله عليه، وسكونه إليه، واعتماده عليه، ودناءتُه

وخسته وسقوطه من عين الله تعالى، إنما تكون بنظره إلى نفسه، وإقباله على غيره، واستناده إلى سواه، فالعبد عند عمله بالطاعة، معرّض لهذه الأخطار، من نظره إلى نفسه، واستعظام عمله، وعجبه بطاعته، وسكونه إلى معاملته، ولَيْتَه يسْلم فيه من دقائق الرياء والتصنع.

بخلاف المعصية في جميع هذه الأشياء، فإنها تحمله على الحذر والخوف من ربه، وتوجب له الاستكانة والخضوع، وشدة الافتقار إليه، فلذلك كان العبد إلى حلم الله إذ أطاعه، أحوج منه إلى حلمه إذا عصاه»[1]

فهل بقي بعد هذا من مسوِّغ لأن يحصي العبد عباداته، أو أن يستعرض إنجازاته، ويفتخر على أقرانه بصولاته وجولاته في ميدان الدعوة والتعليم؟

❖ من هو ابن عطاء الله؟

الشَّيْخ تَاج الدِّين أحمد بن محمد بن عطاء الله، من أهل الإسكَنْدَريَّة، لسان وقته وأعجوبة زمانه في الكلام والمواعظ، كان له كرسي في الجامع الأزهر يعظ الناس، وكان لكلامه وقع

(١) غيث المواهب العلية، ص١٧٧

هائل في النفوس، والمرء يستطيع أن يتصوَّر ذلك بمجرَّد اطِّلاعه على حِكَمه التي صار اسمه -فيما بعد- عَلَمَاً عليها، أعني الحكم العطائية، وهي عبارات شديدة التركيز في التوحيد والسلوك، عظيمة الأثر في النفس لمن يفهمها، تصيب القارئ في المِحَزِّ من نفسه، وهي تدل على قَدم راسخة في العرفان. من أشهر من تلمذ عليه في السلوك علّامة الشافعية في زمانه الإمام المجتهد تقي الدين السبكي. توفي بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ).

▪ انظر ترجمته في (طبقات الشافعية) للتاج السبكي.

تذكر

• تذكر أن الأصل في الطاعات هو الإخفاء؛ تحاشياً لتسرّب الرياء إليها ومن الطاعات، ذلك الذي أنفقته من مالِك وعمرك في سبيل الله. ومن الطاعات، اهتداء فلان وفلان على يديك، ومن الطاعات، إنتاجك العلمي، من خطب ومحاضرات ومؤلفات وبرامج، فإذا وُجد المبرر الشرعي للاستعلان بذلك، وتذكير الناس به فذاك، وإلا كان ذلك مُدخِلاً في الرياء، ومَدخَلاً لعمل الشيطان.

وفي ذلك يقول الشيخ أبو سليمان الداراني*:

أفضل العمل أخفاه؛ أمنعه من الشيطان وأبعده عن الرياء.

ويقول:

«إن لإبليس شيطاناً يقال له المتقاضي، يتقاضى ابن

آدم بعد عشرين سنة ليخبر بعمل قد عمله سراً ليظهره، فيربح ما بين أجر السر والعلانية»[1]

- إن كل عمل صالح يجري على يديك، ما هو على التحقيق واليقين، إلا مظهر من مظاهر إحسان الله تعالى إليك، فإذا أقرَّ الله عينك بشيء من ذلك، فأَوْلى بك أن تتذلَّل له شكراً واعترافاً بالفضل، لا أن تفتخر على عباده بما ليس من صنعك.

❖ من هو أبو سليمان العنسي الداراني؟

الإمامُ الكبير، وزاهد عصره، من أهل داريا (بلدة قرب دمشق)، ورد بغداد، وأقام بها مدة، ثم عاد إلى الشام فأقام بداريا حتى توفي.

قال أبو سليمان: سمعت أبا جعفر يبكي في خطبته يوم الجمعة، فاستقبلني الغضب، وحضرتني نية أن أقوم فأعظه بما أعرف من فعله إذا نزل، وبكائه على المنبر [يعني لأنه رأى

(١) مجمع الأحباب، ٤/ ٢٨٩ أي إن الشيطان لا ييئس من ابن آدم ولو بعد أعوام من تمام العمل، فيوسوس للإنسان بإعلان ما كان أخفاه، لينزل بالأجر من أجر السر -وهو الأكبر- إلى أجر العلانية.

في بكائه مع كثرة مظالمه ضرباً من الرياء لجذب القلوب إليه]، قالَ: فتفكرت أن أقوم إلى خليفة فأعظه والناس جلوس يرمقونني بأبصارهم، فيعرض لي فيأمر بي فأقتل على غير تصحيح، فجلست وسكت».

فرحمه الله ورضي عنه ما أدق تفتيشه في نيته.

وقال أحمد بن أبي الحواري (وهو تلميذه المقدّم): قال لي أبو سليمان: يا أَحْمَد، حتى متى تكون وصَّافاً؟ أما تحب أن توصف؟

توفي (٢٠٥هـ).

■ ترجمة مقتبسة من (تاريخ بغداد) للخطيب؛ و(سير أعلام النبلاء) للذهبي.

مدح أم...
ذبح؟!

احترام الناس لأهل العلم وتكريمهم، علامة من علامات الإيمان، فتقدير العلماء وطلبةِ العلم؛ بتقديمهم، وعدم رفع الصوت في حضرتهم، والإنصاتِ لهم إذا تكلموا، والقيام لهم، وتقبيل أياديهم أو رؤوسهم (إذا جرى بذلك العرف)،كل ذلك هو أمر طيب، وهو من تعظيم شعائر الله الذي هو علامة من علامات تقوى القلوب.

لكن أمثال هذه التصرفات تنطوي على خطر عظيم، فهي، وإن كانت علامة تقوى ممن يفعلها، قد تكون حتفاً وهلاكاً لمن تُفْعل به إذا استمرأها وأحس أنه أهل لها

لقد كرَّه الإمام مالك -رحمه الله- أن يؤمَّ الإنسانُ الجمْعَ من الناس في غير الفريضة، وكره له أن يقوم بالدعاء بين الناس جهراً وهم يؤمِّنون، لأنه وجد في ذلك ذريعة للاشتهار والظهور والرياء.

وأكثر العلماء موافقون للإمام مالك في أن ذلك قد يكون فعلاً ذريعة للرياء، وإن كانوا يخالفونه في جعل هذا الاحتمال مبرِّراً لإطلاق القول بالكراهة.

والذي يعنيني الآن ليس هو حكم من يقوم بالتكريم، لأنه مأجور على نيَّته ولا شكَّ، ولكنَّ الذي يعنيني هو حال من يكون له التكريم، وماذا يفعل فيه ذلك التكريم.

فالطالب في بداية الطلب، ومع أول جزء من القرآن يحفظه، يبدأ بتلقي الجرعات الأولى من الاحتفال والتعظيم والثناء، ولكن هذا ما لم يقترن بتربية للقلب تكون بنفس مستوى تربية اللسان الذي حفظ وجوّد، يجعل المبالغة في مدح الطالب والإطراء عليه سبباً لهلاكه، بدلاً من أن يكون سبباً لفلاحه، إذ ماذا يغني حفْظُ ألفاظ القرآن، إذا كان ذلك الحفظ مُلابِساً للكبر والإحساس بالترفّع على خلق الله، والتميُّز عن سائر الناس من العوام؟

ولا تَعْجَبْ بعد ذلك إذا وجدت كثيراً من الطلبة -هدانا الله وإياهم- يجتهدون في المحافظة على اللباس الشرعي (أعني زي العلماء والمشايخ)، لا لأنّه ضرْب من ضروب الآداب الشرعية، ولكنّهم يفعلون ذلك لأنّهم يرون فيه وسيلةً ينتزعون بها الاحترام والتكريم من الناس، شعروا بذلك أو لم يشعروا.

ولا تعجب إن وجدت كثيراً منهم يكابرون بالترفع عن الحقّ، بل يكابرون في الباطل، حتى لا يُنْسَب أحدهم للجهل، وحتى لا يقال في حقه إنّه قد أخطأ

وهل نما في داخله هذا الخُلُق إلا من تتابع المِدْحة والثناء عليه؟

وكيف تخضع تلك النفس الشَّموس[1] للحق، وصاحبها لم يزل الخطيبَ الحافظَ الذي ينهال عليه المدح والتعظيم مذ كان صغيراً؟

مذ كان صغيراً تعلَّم وأقرانه جاهلون، وحفظ القرآن

(١) يقال: فرس شَموس أي: دابة حَرون، وتستعصي على راكبها

وأقرانه يلعبون، وصعد المنبر وخطب في الناس، وأقرانه للفاتحة لا يُحكِمون!!

هذا ما يقال له، وهذا ما تمتلئ به أذناه، أما قلبه فلا يكاد يلُقَّن شيئاً من المكافئ الروحي والتربوي لتلك المحفوظات التي أتقنها وامْتُدح لأجلها.

وبعد ذلك، فكيف يستطيع من تربَّى بهذه الطريقة أن يكون متواضعاً؛ طبيعةً لا تكلفاً؟

وكيف يسهل عليه أن يعترف بالحق، إذا واجهه به من يراه دونه في الإجازات والمحفوظات؟

كم وكم رأيت وسمعت أخوات (وإخوة كذلك) تسارع إحداهن -ويسارع معها أهلها- إلى التعريف بأنّها تحمل إجازة حفظ القرآن الكريم، يفعلون ذلك بمناسبة وبغير مناسبة، ثم إذا عاملها الناس وجدوا رصيدها من أخلاق أهل القرآن، وتواضع أهل القرآن، وخضوع أهل القرآن للحقّ، أقلَّ بكثير مما تَشِي به تلك الإجازةُ التي حمَلَتْها على عَجَلٍ.

لقد حملت الإجازة خلال عام أو عامين، وأخذت لقب الحافظة، وخُلعت عليها حِلْيةُ الحَفَظَة،

وقَطَفَت الثمارَ الاجتماعيةَ لكونها حافظةً لكتاب الله، فحَسِبت أنّها صارت -منذ تلك اللحظة- مركزَ الأرض، وأنّ الناس كلَّهم عَالَةٌ عليها، ويدورون حولها.

كيف لا؟ وهي ترى في نفسها الحافظةَ لكتاب الله، في زمان لا يكاد كثير من الناس يتقنون الفاتحة؟!

نعم، إنَّ عاماً أو عامين قد يكونان كافيين لحفظ ألفاظ القرآن، وإقامة اللسان بنطقها، ولكن هل تكفي لتصنيع وارث من ورثة الأنبياء؟ وهل يتناسب لقبُ الحافظ لكتاب الله، مع المضمون الروحي والأدبي الذي يحمله ذلك الحافظ فعلاً؟

فإن لم يكن متناسباً -وهو الغالب- فعلامَ يُكَال المدح جزافاً لذلك (الحافظ) المسكين، من غير تبصُّر بعواقب ذلك عليه؟

ومن أجل هذا المعنى، فإن كثيراً من أهل التربية كانوا إذا وجدوا الطالب ارتفع شأنه بين الناس، وصار محطّاً لأنظارهم، فإنّهم يجتهدون بكل وسيلة لكسر نفسه، بأن يكلِّفوه مثلاً بأعمال حقيرة يأنف منها العامة فضلاً عن الخاصة، حتى لا يسمحوا لنفسه بالكبر والتعالي على

الخلق، كأن يطلبوا منه تنظيف المراحيض في المساجد، أو يطلبوا منه ترتيب أحذية المصلين، أو خدمة العجائز والمجانين والصبيان، ويمنعونه من الظهور في مظانِّ الاشتهار، كالإمامة والخطابة والتدريس، إلى أن يطمئنوا إلى استقامة باطنه.

وكم سمعت من معترضين على هذا الأسلوب في التربية، بحجّة أنه يربِّي الطالبَ على الذلّ والخنوع، ويقتل فيه العزةَ والاستعلاء والفخر، الذي ينبغي أن تنطوي عليه نفس المؤمن.

ولكن لا والله، ما أصاب هؤلاء ولا أحسنوا، فإنَّ طالب العلم إذا حمل علماً ولم يحمل بقدره تواضعاً وإنكاراً للذات، كان أضرَّ على الإسلام من المتهتِّكين والفاسقين.

على أن يكون فعل ذلك تحت عين مربٍّ خبير بآفات النفس وأساليب تقويمها، لا أن يتنطَّع له من هو أحوج للتربية والتقويم من تلميذه.

فهذا عُمَرُ يمسح الإبل الجرباء بالقطران، فيقول له الأحنف: يا أمير المؤمنين، مُرِ العبيدَ يكفونك ذلك،

فيقول: ويحك يا أحنف، وأيّ عبد أعْبَدُ من عمر؟

وحمل قِرْبَةً على عنقه، فقيل له في ذلك، فقال: إن نفسي أعجبتني، فأردت أن أذلها

ونادى رضي الله عنه مرةً في الناس: الصلاة جامعة، ثم جلس على المنبر، فما تكلم حتى امتلأ المسجد، فقال: الحمد لله، إني كنت أؤاجر نفسي بطعام نفسي، ثم أصبحت على ما ترون، ثم نزل.

فعجب ولده لهذا، فقال له عمر: إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها

وهذا أبو هريرة -وكان أميراً لمروان بن الحكم- يسير في السوق يحمل حزمة حطب على كتفه وهو يقول: أفسحوا للأمير.

وكم في سيرة السلف من أخبار في ذلك.

أفكان هؤلاء إذ يفعلون ذلك جاهلين كيف تربى النفس البشرية على العزة والإباء، وهل وجدت العزة والشمم عند أحد في التاريخ كله كما وجدت عندهم؟

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: مدح رجلٌ رجلاً عند النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ:

«ويحك، قطعت عنق صاحبك.

قطعت عنق صاحبك.

قطعت عنق صاحبك»[1]

وصدق المعلم الأعظم ﷺ.

هو ذَبْح إذن، لا مدح.

وللحديث بقية.

(١) رواه البخاري، رقم (٢٦٦٢)؛ ومسلم، رقم (٣٠٠٠).

صنعة التواضع

يقول الشيخ الشعراني رحمه الله:

«أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن نتواضع لإخواننا المسلمين، بمعنى أننا نرى أنفسنا دونهم في المقام، لا أن نرى لنا مقاماً فوقهم، ونتنازل لهم منه، كما هو ظاهر لفظ التواضع»[١]

كثير من طلبة العلم يستسهلون التواضع، ويحسبونه بضع كلمات وحركات يتعلمها من أراد التواضع، فيصير متواضعاً، إنه عندهم أشبه ما يكون بصنعة، من أتقنها صار معلماً فيها.

وليس التواضع صنعة، ولا هو مما يتعلق بعمل

(١) لواقح الأنوار القدسية، ص٣٤٧

الجوارح، وإنما هو شعور يستولي على القلب، فتفيض آثاره على الجوارح، فتنفعل به رغماً عنها، بغير تعلم ولا تكلف.

إنه شعور يشهد فيه الإنسان حقيقة عبوديته، فيفنى مع هذا الشعور كل أثر للتعالي، ويطيح في الهواء كل معنى من معاني التكبر، وتتحول كل الأمجاد والبطولات والإنجازات والشهادات والألقاب والعبادات، تتحول كلها إلى لا شيء، ويصير هو نفسه لا شيء، فكيف يمكن لهذا الـ(لاشيء) أن ينسب لنفسه منزلة عالية في مملكة الله؟ وعمَّ يتنازل، إن كان أصلاً لا يملك؟ وكيف يضع نفسه وينزل بها، إن كانت لم ترتفع أصلاً؟ إنها لا شيء.

يقول ابن عطاء الله رحمه الله:

«من أثبت لنفسه تواضعاً فهو المتكبر حقاً، إذ ليس التواضع إلا عن رِفعة، فمتى أثبتّ لنفسك تواضعاً، فأنت المتكبر حقاً»(١)

نعم، إنك إذا رأيت لنفسك منزلة، وأخذت تحصي

---

(١) الحكم العطائية، الحكمة رقم (٢٣٨).

كم لك على الناس من مِنّة، وكم من الخلق على يديك اهتدى، وكم من الناس بموعظتك أبكيت، وكم علمت، وكم من الكتب صنفت، وكم من الفساد أصلحت، ومن المنكر أزلت، ثم ذهبت بعد هذا كله -ولكي تتواضع- تتكلف النزول عن هذه المنزلة، وتتناسى تلك (البطولات)، إذا فعلت هذا فأنت متكبر، وليس المتكبر أحداً سواك، إذ مَنِ الذي أثبت لك هذه المنزلة؟ ومن الذي قال لك إنّ عملك هذا مقبول غير مردود، وإنك كنت فيه على قدم الصدق والإخلاص؟ بل من الذي قال لك: إنك -إذ فعلت ذلك كله- فعلته باجتهادك وذكائك، ومحض قدرتك، وإنك أوتيته على علم عندك؟ وهل التكبر شيء سوى اعتقادك لهذا؟

إنك تحسب نفسك متواضعاً، ولكنّك في الحقيقة متكبر، وأيُّ متكبر.

لقد علّمنا رسول الله ﷺ قانوناً يضمن لمن عَقَلَه، ألا يقع في هذا المزلق، ولا تنطلي عليه تلك الحيلة من حيل النفس الأمّارة بالسوء، فقال ﷺ:

«لن ينجي أحداً منكم عملُه، قالوا: ولا أنت

يـا رسـول الله؟ فـقـال: ولا أنـا، إلا أن يـتـغـمـدنـي الله برحمته»[1]

إن رسـول الله ﷺ يـؤكـد لـك أن مـا تـظـنـه عـمـلـك واجتهادك وبطولاتك، إنما هو أثر من آثار فضله سبحانه عليك، به تعلو، وبه تدخل الجنة.

فتأخر في المجالس كما شئت، وكرِّر على مسامع من حولك أنك أقلّ الخلق، وأنك خادم لهم، وأنك تضع نفسك بين نعالهم، وتَمَاوَت بين أيديهم كما شئت، ونكِّس رأسك، والْوِ عنقك كما شئت، فليس ذلك من التواضع في شيء، حتى يكون قلبك منعقداً على أنك وعملَك وجَهْدك وجِهادك هو لا شيء، ولو خطر ببالك أنك -إذ تفعل ذلك- تتواضع، فأنت إذن متكبر، ولست بمتواضع.

يقول الشيخ الشعراني واصفاً كثيراً ممن يظنون أنفسهم متواضعين:

«إن الإنسان ربما يقول بلسانه نحن من أقل الناس،

---

(١) مسند الإمام أحمد، رقم (٩٨٣١).

نحن تراب، وإذا احتقره إنسان أو نَقَصَه، تضيق عليه الدنيا بما رحبت، فأين قوله: «نحن من أقل الناس»؟ ولو أنه كان صادقاً لرأى أن جميع ما نَقَصَه المُنقِصون دون ما يعرفه هو من صفات نفسه الخبيثة».

كم في المتمشيخين من أناس يقول أحدهم بلسانه: «أنا تراب، أنا أقل الناس، كلكم خير مني» -كما ذكر الشعراني- ولكنّه إذا وُجِد في مكان أحب أن يُعرف، وإذا دعي أحب أن يقدم، وإذا انْتُقد كاد يتميَّز من الغيظ.

وكم سُجِّلت من محاضرات، وكم أُلقيت من خطب، وكُتِبت من كتب ومقالات، لا للانتصار لله ورسوله، ولكن للانتصار لتلك (الذوات المتواضعة)، التي كل الناس خير منها!!!

وقد قيل: «لا يتواضع العبد لله حتى يعرف نفسه».

أتراه عرف نفسه من يخوض المعارك لأنه وُصف بالجهل، أتُراه عرف نفسه، من إذا دخل إلى مكان أحب أن يُعرَف، أو أن يقوم الناس له، أو ألا يُقدم عليه في الكلام من يراه أقل منه علماً وقدراً

وقد ذكر الشعراني في كتابه الآخر (الطبقات الكبرى):

«أرسل الشيخ إبراهيم البُستي كتاباً يحطّ على الشيخ أحمد الرفاعي، ومما قاله فيه: أيْ دجال، أي مبتدع (يعني يا دجال يا مبتدع)، يا من جمع بين الرجال والنساء، حتى ذكر الكلب ابن الكلب، وذكر أشياء تغيظ، فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب، أخذ سيدي أحمد وقال: صدق فيما قال، جزاه الله عني خيراً، ثم قال للرسول: اكتب إليه: الجواب من هذا اللاش (أي اللاشيء) حُمَيد (تصغير أحمد)، إلى سيدي إبراهيم البستي رضي الله عنه، أما قولك الذي ذكرته (أي قولك إني كلب ابن كلب)، فإن الله تعالى خلقني كما يشاء، وأسكن فيّ ما شاء، وإني أريد من صدقاتك أن تدعو لي، ولا تخليني من حلِّك وحلمك. فلمّا وصل الكتاب إلى البستي، هام على وجهه، فما عرفوا إلى أين ذهب»[1]

(١) الطبقات الكبرى، ١/ ٢١٤

ولقي رجل زين العابدين بن الحسين* فسبه، فثار عليه من حوله، فقال: مهلاً، ثم أقبل على الرجل فقال له: ما سُتِر عنك من أمرنا أكثر[1]

❖ من هو علي زين العابدين؟

هو سيدنا علي بن سيدنا الحسين بن سيدنا علي، سبط سيدنا رسول الله، وابن سيدة نساء أهل الجنة فاطِمة، صاحب النسب والشرف الذي لا يُدانى، مع جلالة عجيبة وهيبة واجتهاد في العبادة، صار لأجله يُلقَّب بزين العابدين؛ حتى قال الإمام الزهري فيه: «ما رأيت قُرَشِياً أفضل من عليٍّ بنِ الحسينِ».

ومع هذا كله، كان عظيم التواضع، كثير الاتهام لنفسه، يشفق حتى على دابته التي يركبها، فيسير عليها من مكة إلى المدينة لا يقرعها ولا ينخزها. فإذا سار في الطريق على بغلته، كره أن يُنحَّى الناس عن الطريق لأجله، ويقول: هو مشترَك، ليس لي أن أنحي عنه أحداً.

ويدخل المسجد فيشُقُّ صفوف الناس، حتى يجلس في حلْقة زيدِ بن أسلمَ، فيتعجب أصحابه من ذلك ويقولون: «غفر الله لك، أنت سيِّد الناس، تأتي تتخطَّى حتى تجلس مع هذا العَبْدِ!»

فيقول غير ملتفت لقولهم: «العلم يبتغى ويُؤْتى ويُطلب مِنْ حيث كان».

(١) سير أعلام النبلاء: الذهبي، ٤/ ٣٦٨

ما أكل بقرابته من رسول الله درهماً قط، بل كان يكتم نسبه، ولا يستعلن به لمن لا يعرفه، فقيل له في ذلك، فقال: «أكره أن آخذ برسول الله ما لا أعطي مثله»، ثم بعد ذلك كله يدعو فيقول: «اللهمَّ إني أعوذ بك أن تحسن في لوائح العيون علانِيَتي، وتقَبِّح في خفيات العيون سريرتي».

وبالجملة، فقد كان هذا السيد الإمام يرى في نسبه إلى رسول الله تكليفاً وأيّ تكليف، وليس فقط تشريفاً وتقديماً.

فهل من أذن واعية؟

▪ ترجمة مقتبسة من (سير أعلام النبلاء).

وقال رجل لمالك بن دينار: يا مرائي، فقال: ما عرف اسمي غيرك[1]

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز أشهد أنك لمن الفاسقين، فما زاد على أن قال له: لا تقبل شهادتك.

(١) مجمع الأحباب، ٢/ ٣٦٤

تذكر

- إن أولى علامات التواضع أن تغيب عن أنك متواضع، في كل مرّة تتواضع فيها، فتشهد في نفسك من ذلّ عبوديتك لله، ما تشعر معه بأنك مهما فعلت من أفعال التواضع، فلا تبلغ ما تقتضيه منك العبودية البشرية.

- لا ينبغي لك أن ترى لنفسك فضلاً على أي مخلوق من مخلوقات الله، فإن الله فضّل جنس الإنسان على غيره من المخلوقات، وفضّل جنس المسلم على غيره من الناس، وأما أنت في شخصك، فلا تدري بأي شيء يُختم لك، ولا تدري إلى أي شيء تصير، ولا تدري ماذا قُبِل من عملك، فكم من مركوب هو خير من راكبه عند الله! وكم من مسلم مات على غير الإيمان! وكم من كافر حسنت خاتمته، فسبق المؤمنين!

- قد يعظم في عين الناس ظاهرُك، وربما أسمعوك من الثناء ما قد ينسيك حقيقة نفسك، حتى تظنّ أن لك

مرتبة عند الله سبحانه تستحقها، ثم تبني على هذا أن عليك أن تضع نفسك عند هذه الرتبة، فتذكر عند ذلك أن عليك أن تعاكس ما تسمعه من ثناء الناس، بما تعلمه من نفسك، فإن الناس ما كانوا ليثنوا عليك لو أن الله هتك عنك حجاب ستره، وأطلع الناس على ما في سرّك، فأي منزلة تلك التي تستحقها؟ ومتى علوت حتى تتكلف النزول؟!

روي أن ابن مسعود -وهو من هو!- خرج من بيته، فتبعه جماعة، فالتفت إليهم، وقال: «علامَ تتبعوني؟ فوالله لو علمتم ما أُغلق عليه بابي، ما تبعني منكم رجلان»[1]

- قد تهون عند الناس منزلتك، فتسمع منهم ما فيه غَضٌّ من علمك وحطّ من منزلتك، فإن كنت متواضعاً فليس لك أن تغضب (إلا أن يكون غضبك لله)، ولماذا تغضب، وأنت تدّعي أن الناس كلّهم خير منك، وأنك خادم لهم، وأنك مجرّد طالب علم؟!

(١) تاريخ دمشق: ابن عساكر، ٣٣/ ١٦٨

أدِّ الذي عليكَ وسلِ اللّهَ الذي لك

إن من يلج مجال العمل الإسلامي العام بأيّ صورة من صوره: الجماعات الدعوية، الأحزاب، الجمعيات الخيرية، الجامعات والمدارس الإسلامية. يلاحظ أن معظم تلك المجالات تتطرق إليها الآفات نفسها، التي تتطرق لكل عمل جماعي -إسلامياً كان أو غير إسلامي- وإن كان بدرجة أقل، وبخفاء أكثر.

جرِّب أن تدخل إلى أجواء العمل الإسلامي التي ذكرتُها لك، وتابع أخبارها، فلنْ يُعجزك أن ترى كثيراً من العاملين في الحقل الإسلامي يستثمرون الدعوة والجماعة، بل يستثمرون العمامة واللحية لمصالح خاصة، ولأغراض ذاتية محضة، لا علاقة للدعوة والإسلام بها، ابتداء من إشباع شهوة الحكم (وأضع

خطوطاً كثيرة تحت كلمة شهوة)[1]، والسيطرة على الجماعة أو المجتمع، وانتهاء باقتطاع جزء من الصدقات والزكوات للمصالح الخاصة، ومروراً باستغلال الجماعة لترويج التجارة، والوصول إلى البرلمان، وتوظيف الأقارب، وتخصيص المعارف ببعض المغانم، وتنافس الأقران وتغايرهم للوصول إلى كراسي الرياسة والقيادة ومنابر الفضائيات، والتزلّف إلى أصحاب المناصب الدنيوية وو.

قد تتفاجأ كثيراً عندما تدخل بعض مجالات العمل الإسلامي، عندما ترى بعض من كنت تعدُّهم إخواناً لك في الله (أقول البعض، والبعض فقط)، ينْفِسون عليك حقوقك التي لا مشاحَّة فيها، ويشدُّون البساط من تحتك

(١) السعي من أجل الحكم أمر مشروع لكل المحكومين، وفي مقدمتهم أصحاب المشروع الإسلامي، على أن ذلك إن كان استجابة لشهوة الملك وحب السلطة والرغبة في التحكم بالخلق، بدلاً من التقرب إلى الله بخدمتهم وحفظ حقوقهم، فعند ذلك يصير الحكم فتنة وآفة، ويصير أصحاب ذلك المشروع مشاريع فراعنة صغار، وهذا بالضبط ما جاء الإسلام لهدمه.

إليهم، وتمتد أياديهم إلى ما ليس لهم، وأنهم يتعاملون مع وظيفة الدعوة وخدمة الخلق وجذبهم إلى الله كما لو كانت دكاناً لهم أو مزرعة، وكلما توسع العمل الإسلامي، وكلما ازدادت المغانم فيه، ازدادت تلك الآفات، وكثر أصحابها

فذا ينافس ذاك على مركزه ومنزلته عند الناس، وذاك يطرق كل باب ليتولى الخطابة في مسجد مهمٍّ، ولينتزع المنبر من سواه، وربما يرتكب المخالفات الشرعية - ويا لَلعجب- في سبيل الوصول لبغيته.

وتلك تعكِّر على سواها من الداعيات عملها في المسجد، لأنها هي سبقتها إليه -كما تزعم- فصار مسجدها هي (ولا أعني أنها ورثته من أبيها طبعاً!)، ولا ينبغي لأحد أن يشوِّش عليها عملها في مسجدها!!!

وذاك ينفق من وقته أياماً وأشهراً ليجمع هفوات دعاة مشهورين، أجرى الله الخير على أيديهم، ليسوِّد بها كتاباً، أو لينشرها على الشبكة الإلكترونية، ولعله -إن كان محظوظاً- أن يتسلق على ظهورهم، ويخطف منهم الأضواء، وهدفه المعلن طبعاً النصيحة!!!!

وانظر إلى تلك الصور التي ذكرتها لك -وغيرها كثير- فسترى أن أصحابها أخرجوها للناس بصورة إسلامية، وغلّفوها بغلاف خدّاع من النصح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحفاظ على المصلحة العليا للدعوة، و. . و. وأكثر هذه الصور على التحقيق، ليست سوى صور تخفي وراءها باطناً ملوّثاً، وأَثَرَة، وإيثاراً للدنيا على الآخرة.

ويبقى السؤال.

أليس وجود هذه الأعراض والآفات في أوساط النخبة الإسلامية (عند بعض أفرادها)، هو شيء غريب، بل ومحبط!؟

وكيف لعمل تنخر فيه بعض هذه الأمراض ألا يسقط، فضلاً عن أن يتطور ويكبر؟

والجواب:

إنَّ هذا كله شيء طبيعي، وطبيعي جداً، ذلك أن كون العمل إسلامياً، لا يعصمه من الآفات التي تنطوي عليها النفس البشرية، فالقائمون على العمل الإسلامي ما هم

إلا بشر، وكونهم مسلمين ومؤمنين، وكون عاطفتهم إسلامية، لا يعني بالضرورة أنهم قد صاروا ملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يعني بالضرورة أن شهواتهم قد استؤصلت من نفوسهم بالكلية، ولكن الجماعة الإسلامية إن كان أفرادها قد زكت نفوسهم، والتربية الإسلامية قد أثرت فيهم، فسرعان ما يحتوون تلك الآفات ويتجاوزونها، ولا يتركونها تؤثر في مسيرة العمل، وإن لم يكن أفراد الجماعة على هذا المستوى، فإنَّ من شأن تلك الآفات أن تعصف بالعمل الإسلامي، ليبدأ بالتآكل شيئاً فشيئاً، وقد ينهار بالكلية، وليقف المنتقدون للعمل الإسلامي، ليسلطوا أصابع الاتهام إليه، ويتطاولوا بألسنة الشماتة على المنهج الإسلامي برمته، وليتّهموه بالقصور والتخلف، وليتهموا أفراده بالوصولية والرجعية، إلى آخر ما هنالك من ألفاظ التنقيص والتجريم.

فكيف إذن يمكن للعاملين في جانب من جوانب العمل الإسلامي أن يجنِّبوه هذا المصير، وماذا تقدم التربية الإيمانية لحماية الجماعة من الانهيار؟

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنه ستكون بعدي أَثَرَة وأمور تنكرونها».

إنها إذن تلك الأَثَرَة والأمور المنكَرة التي حدثنا عنها سيد الوجود ﷺ، وأخبرنا أنها لا بد ستطلّ بقرنها.

قالوا:

«يا رسول الله، فما تأمرنا؟».

بمَ تأمرنا يا رسول الله ﷺ، إن رأيناها واكتوينا بنارها، وانتزعت بسببها منّا أشياء نراها حقاً لنا، وعلا علينا أشخاص نراهم دوننا، ماذا يفعل أفراد الجماعة المسلمة إن ابتليت جماعتهم بشيء مما ذكر من الصور؟

ماذا يفعلون حتى لا ينهار العمل برُمَّته، وحتى لا تتآكل قواعده؟

ويأتي الجواب من المعلم الأعظم ﷺ في الجزء الأخير من الحديث الشريف:

«تؤدُّون الحق الذي عليكم، وتسألون الله الذي لكم»[(١)]

(١) رواه البخاري، رقم (٣٦٠٣)؛ ومسلم، رقم (١٨٤٣).

ويا له من جواب..!

إنه القانون الجامع الذي يكفل النجاح في كل عمل جماعي تراد به الآخرة.

اسمع وتدبر:

رسول الله ﷺ يقول لك: إن كنت حقاً تريد الله والدار الآخرة، فدعني مما تظنه حقاً لك، وأدِّ ما هو حق عليك، والله معك يسمع ويرى.

لا ينبغي لمن يعمل لله أن تتغير نيته ويتراجع عمله، إذا نيط به عمل إنما هو عمل غيره!! وواجب إنما هو واجب غيره، ولا ينبغي إن كان يعمل لله أن يتشوش خاطره، إن وجد أنه يعمل وغيره يربح، ويتعب وغيره يجني، بل ويزاح عن عمله ليقدَّم عليه من هو دونه كفاءة وأهلية.

إنَّ هذا العمل لو كان للدنيا، لكان هضمُ حَقٍّ من يعمل ويتعب ظلماً لا ينبغي السكوت عنه، أَمَّا وأنّ العمل لله، والنية لله، فما الضير في ذلك إن كان صاحب العمل هو الله، وإن كان الأجر في يده وحده، وليس بيد

أحد سواه، هو الذي يعطي ويمنع، ويعاقب ويثيب، ويرفع ويخفض؟

وهل يضيع عند الله عمل عامل، وإن كان مثقال ذرة؟

مَن مِنَ الناس لا يعرف خالد بن الوليد؟

أليس هو سيف الله المسلول كما لقبه سيدنا رسول الله ﷺ؟

أليس هو القائد الذي لم يذق طعم الهزيمة في معركة خاضها؟

أليس هو فاتح الشام وقاهر الروم؟

خالد هذا، بعد أن فتح الله على يديه دمشق، أتاه كتاب العزل من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل أمير المؤمنين عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح يخبره فيه أن قيادة الجيش قد صارت إليه، فحبس أبو عبيدة الكتاب عنده، ولم يخبر به خالداً، حتى علم خالد من الناس، فسأل أبا عبيدة، فدفع أبو عبيدة إليه الكتاب الذي فيه عزله.

وعندها قال خالد: متى أتاك هذا الكتاب؟

قال أبو عبيدة: عشية استفتحتَ دمشق.

قال خالد: فما منعك أن تأتينا به؟

قال أبو عبيدة: كان فتحاً فتحه الله على يديك، فكرهت أن أُنَغِّصَكَه[1]

يا لله!!

بالأمس، وبالأمس فقط، كان خالد يقاتل قتال المستميتين في جيش العراق، ثم يأتيه الأمر من الخليفة أن يتحرك إلى الشام لنجدة جيشها، فيمتثل رضي الله عنه من غير ما توقُّفٍ ولا توانٍ، ويسير من فوره إلى الشام، قاطعاً مفاوزها في خمسة أيام فقط، ويسجل جيشه بقيادته معجزة عسكرية، بقطعه لتلك المسافة بتلك المدة المعجزة بمقاييس ذلك الزمان.

يسير من غير راحة، وسُمْعته تسبقه قبل أن يصل، ثم يفتح الله به دمشق.

ثم بعد هذا كله.

---

(١) انظر: تاريخ ابن عساكر، ١٦/ ٢٦١

يأتيه كتاب العزل، وهو متربِّع على قمة المجد، وسيفه ما زال يقطر من دم العدو، ليصير جندياً عادياً من عامة الجند، بعد أن كان قائدهم ومُقدَّمهم.

أتُراه فكّر أن ينقلب على القيادة؟

أوَتراه فكر أن يحفظ ماء وجهه، فينسحب بمن معه من عصابته، ليُثبت لأمير المؤمنين أنه أخطأ عندما عزله؟

أو لعله -على الأقل- ضعفت همته وقلّ حماسه، لما رأى أن جهده ودمه لم يقدره الخليفة ووزراؤه في المدينة المنورة عندما عزلوه؟

أرأيت لو أن خالداً فعل شيئاً من ذلك، أكان الإسلام قد بسط سلطانه على ما بقي من الشام؟

بل هل أقام المسلمون على ما كانوا انتزعوه من الروم؟

أوَتراني كنت وإياك اليوم من المسلمين؟؟

يقول الواقدي في كتابه (فتوح الشام) حاسماً كل تلك الاحتمالات، ومجيباً عن كل تلك التساؤلات:

«بلغني أنه -يعني خالداً- كان على العدوّ بعد عزله، أشدّ فظاعة، وأصعب جهاداً»[1]

وتوفي رضي الله عنه في حمص بعد أن افتتحها، توفي على فراشه كمِداً حزيناً أنه لم يمت شهيداً[2]

وما أكثر أمثال هذه البطولات في تاريخ الإسلام الطويل، البعيد والقريب، وما أكثر ما حُفِظت جماعات المسلمين ودولهم وحضارتهم ببطولات أشخاص من هؤلاء، أنفقوا النفْس والنفيس، لا يعرفهم التاريخ، ولا يعرفهم أحد من الناس، وما لهم وللتاريخ؟ وما لهم وللناس؟ وهل فعلوا ذلك ليخلدهم التاريخ؟ أو لتقام لهم النصب التذكارية؟ أو ليقول عنهم الناس إنهم أبطال قوميون؟ ما لهم ولذلك كله؟

---

(١) فتوح الشام، ١/ ٧٠

(٢) روى ابن عساكر في تاريخه عن عمر أنه كان يقول: لئن صيَّر الله هذا الأمر إليَّ لأعزلنَّ المثنى بن حارثة عن العراق، وخالد بن الوليد عن الشام، حتى يعلما أنما نصَرَ اللهُ دينَه ليس إياهما نصر. وكان الناس يتحدثون أن جيشاً يقوده خالد لا يهزم، فأراد رضي الله عنه أن يثبِّت في نفوس الناس أن الله إنما ينصر دينه ولا ينصر زيداً أو عمراً. انظر: تاريخ ابن عساكر، ١٦/ ٢٦١

كلا ، كل ذلك لم يكن، إنما فعلوا ما فعلوه تزلُّفاً لمن كل شيء فانٍ إلا وجهه.

أعرف طالب علم أوتي من البيان ما يستحق معه أن يكون خطيباً، ولكن تصاريف الزمان، قدّمت عليه غيره ممن هو دونه بكثير، فارتقى منبراً ليس له بأهل، ولكن ذلك الطالب العامل، جعل ديدنه أن يكتب الخطبة لذلك الخطيب، فكان يدبّجها له، ويدعمها بالشواهد والأفكار الجديدة، ثم يرسلها إليه، فيخطب بها في الناس، والناس لا يرتابون بأن ذلك من فتوح الله على الخطيب، وأما الخطيب الحقيقي، فكان يجلس مع الناس، يستمع ويحمد الله أن رسالته وصلت. ولو بصوت غيره.

وسمعت مراراً من مفتي الشام في زمانه الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله، أن والده العالم العامل محمد أمين، كان شيخاً لمسجد من مساجد دمشق، فحصل ذات مرة، أن مرحاضاً في المسجد قد سُدّت فتحته بسبب شيء وقع فيه، فما عاد يصرِّف ما يدخل فيه من النجاسات، حتى بلغت فيه شيئاً كثيراً، وأما الشيخ فإنه لما رأى ذلك،

ما كان منه إلا أن انبطح على بطنه، وأدخل ذراعه الطاهرة في فتحة المرحاض، ليستخرج منها ما كان يسدُّها

إنّ الشيخ لو شاء أن يلقي بالملامة على خادم المسجد لتقصيره في تسليك المرحاض لفعل، ولو أنّ الشيخ نأى بنفسه عن هذا العمل، لما كان ملاماً، لأنه خطيب المسجد وإمامه، وتسليك المرحاض ليس مهمته، ولا عليه إن صرفت النجاسة أو سالت أنهاراً، ولْيقمْ بعض من يستخدمه من المصلين بإصلاحه، إذ الشيخ ما كان يستخدمه، لأن بيته لصيقٌ بالمسجد، لكن الشيخ لم يفعل ذلك، وقام بتلك المهمة بنفسه، بل وقام بها بصمت عجيب من غير أن يَطلب من أحد، ولا أن يلوم أحداً، ولولا أن بعض الناس دخل المرحاض في ذلك الوقت، ونقل الواقعة، لما سمع بالقصة أحد.

وكنت أحياناً أرتاد مسجداً أصلي فيه، فما شئت أن أدخله مرةً إلا رأيت شيخاً وقوراً بلحية خالطها الشيب، أراه مرة يغسل الموضأ، ومرة يمسك بيده مكنسة يكسح بها الأرض، ومرة يرتب الأحذية المتناثرة، فإذا فرغ، تنظف وتطيّب، وجلس بين المصلين في المسجد يستمع

القرآن من الطلاب -وكان حافظاً للقرآن- وكان الاستماع للطلاب هو وظيفته في ذلك المسجد.

إن أمثال هؤلاء، لو لم يفعلوا ما فعلوه، ولو أن الواحد منهم رفع عقيرته يقول لمن حوله: ألا تخافون الله، لماذا لا يحاسب المقصر، ولماذا علي أنا أن أقوم بمهمة غيري؟ ولماذا لا يذكر لي ذلك ويذكر لمن لم يفعله، ولماذا يشكر هو ولا أشكر أنا، لماذا أعمل أنا ويؤجر غيري، ومتى أنال ما أستحقه من منزلة وتكريم لقاء ما فعلت وبذلت؟

تخيل وفكّر بتلك الضوضاء والفوضى، هل كانت لتترك ذلك العمل الإسلامي ليستمر، أم أنها كانت ستشوشه وتعيقه؟

فهل عرفت الآن كيف يتطور العمل الإسلامي، وكيف يجنبه أبناؤه الانهيار والسقوط إذا طرقته معاول الأنا وحبّ الذات؟

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير.

كما عشت..
لم تعد هنالك طاقة أكثر للقيام بمهامي (في مكاني الصحيح) إمكانية قد أضعت هدراً كبيراً منها في أداء مهام غيري!! كلٌّ ميسر لما خلق له.

تذكر

- إذا أقامك الله في عمل من أعمال الدعوة إلى الله، فتذكر أنك تعمل لحساب واحد لا غير، هو رئيسك الأوحد، وأجرك هو من يحدّده، ومهامك التي تنتدب لها هو الذي يحدِّدها، وأنك مهما أحسنت أو أسأت، فعلْتَ أكثر من المطلوب أو دونه، فإنه هو وحده الذي يعرف، وهو وحده الذي سيحاسب، وذلك الرئيس هو الله[1]، فإن علم واطّلع هو، فماذا يضيرك جهل غيره؟

  وإن كان هو من سيحدد الأجر، وهو من سيُقبضك إياه، فأيّ شيء يضيرك إن انتقصك حقَّك غيرُه؟

- تذكر أنك -إذ تعمل لحسابه سبحانه- فليس هناك

---

(١) إطلاق وصف الرئيس على الله سبحانه هو تجوُّز استدعته العبارة، وإلا فلا يوصف الله إلا بما ورد في الكتاب أو السنة، على خلاف بين العلماء فيما ورد من ذلك مستنداً إلى حديث آحاد.

مهمة شريفة ومهمة وضيعة، ويكفيك شرفاً أنه رآك أهلاً لخدمة دينه، ولا معنى -من ثَمّ - لأن تزعجك منافسةُ غيرك لك، في مهمة يرونها شريفة، ولا يزعجك تهربهم من مهمة يرونها وضيعة، فقم بها أنت إن استطعت، وتذكر قوله ﷺ:

«**تعس عبد الدينار** وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن مُنِع سخط، تَعِسَ وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش، طوبى لعبد آخذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الساقة كان في الساقة، وإن كان في الحراسة كان في الحراسة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفِع لم يشفَّع، طوبى له، ثم طوبى له»[(١)]

• تذكر أن الخلق إنما هم بوابات، يأتيك من قِبَلِها ما قسمه الله لك، ووقوفك في الناس خطيباً -مثلاً-

---

(١) أخرجه البخاري، رقم (٢٨٨٧). ومعنى قوله ﷺ: «إن كان في الساقة. إلخ»، أي: لا يبالي بالمهمة التي يكلف بها، ولا يبالي بالموضع الذي يطلب منه أن يكون فيه، لأن ذلك كله في سبيل الله.

إنما وقع لك بإمضاء من الله، لا من إدارة الأوقاف والشؤون الدينية، وعزلك عن تلك الوظيفة لتقوم بغيرها، إنما وقع لك بالإمضاء نفسه، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

- تذكر أنك تعمل لله لا لنفسك، فلا تنفق وقتك وجهدك للدفاع عن نفسك، ولتلميع صورتك، والردّ على منتقديك (وربما حاسديك)، ولا تسمح لنفسك بتاتاً بأن تجرك إلى معارك جانبية لا خير فيها، فإنَّ الله استعملك لتذبّ عن دينه لا عن نفسك، ولتجذب الناس إليه لا إلى نفسك، ولتسكت خصومه لا خصومك.

واعلم أنك مهما جعلت همّك هو نفْسَك، حُرِمت التأييد، وأخرج الله محبتك من القلوب، ومهما أنكرت ذاتك، وجعلت همك دينَ الله، لا نفسك وسمعتك وحقوقك. وو، فإن الله قد قال فيك وفيمن هم مثلك: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٨].

المنقذ من الضلال

قبل مدة وجيزة من وفاته وانتقاله إلى بارئه، كتب الإمام الغزالي كتابه (المنقذ من الضلال)، يختصر لنا فيه تجربة حياته الحافلة المليئة بالعبر، والجديرة بالتأمل لكل طالب علم من أمة محمد ﷺ.

وها أنا -أخي- أنقل لك وصف الإمام لحاله في بداياته، وبحروفه، رحمه الله، لترى بنفسك - إن كنت صادقاً معها- كم تشبه حالةُ كثير منّا اليوم، حالةَ الإمام في تلك المرحلة التي سماها ضلالاً

يقول رحمه الله:

" ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي

وأحسنها التدريس والتعليم- فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جُرف هارٍ، وأني قد أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بُكرَة، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل! فلم يبق من العمر إلا قليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياءٌ وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع الآن هذه العلائق فمتى تقطع؟

فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار، ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة،

إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها، وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمر المسلَّم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليه نفسك، ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لساني، حتى اعتُقِل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرِّس يوماً واحداً، تطييباً للقلوب المختلفة إليَّ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة، حتى أورثت هذه العُقلة في اللسان حزناً في القلب، بطلت معه قوة الهضم، ومراءة الطعام والشراب، فكان لا ينساغ لي ثريد، ولا تنهضم لي لقمة، وتعدّى إلى ضعف القوى، حتى قطع الأطباء طمعهم من العلاج، وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب، ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروَّح السر عن الهم المُلِم.

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال والأهل والولد والأصحاب، وأظهرت عزم الخروج إلى مكة، وأنا أدبر في نفسي سفر الشام، حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الأصحاب على عزمي على المقام في الشام، فتلطّفت بلطائف الحيل، في الخروج من بغداد، على عزم ألا أعاودها أبداً. واستُهدِفت لأئمة أهل العراق كافة؛ إذ لم يكن فيهم من يجوِّز أن يكون للإعراض عما كنت فيه سبب ديني، إذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم، ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظنَّ من بَعُد عن العراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة، وأما من قرُب من الولاة فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي، والانكباب عليّ، وإعراضي عنهم، وعن الالتفات إلى قولهم، فيقولون: هذا أمر سماوي، وليس له سبب إلا عين أصابت أهل الإسلام وزمرة أهل العلم.

ففارقت بغداد، وفرّقت ما كان معي من المال، ولم أدّخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال، وترخّصاً بأن مال العراق مُرْصَد للمصالح، ولكونه وقفاً على المسلمين، فلم أرَ في العالم مالاً يأخذه العالِم لعياله أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين، لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصّلته من كتب الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، وثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت فيَّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضاً، حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعيشة، تُغِير في وجه المراد، وتشوِّش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال، إلا في أوقات متفرقة، لكني مع ذلك، لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها».

ثم قال -رحمه الله- يصف خاله بعد كل تلك السنين، حينما رجع إلى نيسابور ليبث علمه - وكم بين علمه هذا اليوم وبين علمه ذاك اليوم من فرق، وكم بين غزالي نيسابور وبين غزالي بغداد من بون شاسع-:

«وهذه حركة قدرها الله تعالى (يعني دخوله نيسابور معلماً بعد سنوات العزلة، وبعد أن ألح عليه السلطان بذلك)، وهي من عجائب تقديراته، التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد، والنزوع عن تلك الأحوال، مما خطر إمكانه أصلاً بالبال، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال، و«قلب المؤمن بين إصبعين من أصابعِ الرحمن».

وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم فما رجعت، فإن الرجوع عَود إلى ما كان، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني، وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل مرادي أم أُخْتَرَم دون غرضي؟

ولكني أومن إيمان يقين ومشاهدة، أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، ولكنه حرَّكني، وأني لم أعمل، لكنَّه استعملني، فأسأله أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً ويرزقني اتِّباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه».

هكذا كانت حياة الإمام الغزالي، حياة كانت في بداياتها شبيهة بحياة الكثيرين منَّا -معاشر الطلبة- فهل عساها تكون في نهايتها شبيهة بحياة ذلك الرجل، الذي صار يلقّب بحجة الإسلام، بل صار مجدِّد المئة الرابعة؟

ولكن...مهلاً

قد يخطر ببالك -وأنت تقرأ ما سبق معك في هذه الأوراق- أن تقول لنفسك: ما لي وللعلم إذن، وهل أزداد بعلم من غير عمل من الله إلا بعداً؟

ألا أستكثر بهذا العلم من حجة الله عليَّ؟

وقد يحملك هذا على أن تترك العلمَ جملةً، وربما قلت في نفسك: «فَلْأعمل بما أعلم أولاً، ثم أتعلم غيره».

فإن كان حصل لك شيء كهذا -أخي- فاعلم أنه من وساوس الشيطان، لتصير حالك إلى البطالة؛ لا علم ولا عمل.

ومعاذ الله أن يكون هذا الكتاب قد كتب ليصرفك عن العلم، ولكنه كتب ليستعرض الآفات التي تعترض طلبة

العلم، وليكشف تلبيسات إبليس ورعونات النفس، التي تلبَس لبوس العلم.

وهل عُرف ذلك كله إلا بالعلم، وهل عُرفت مواطن الزلل إلا بالعلم، وهل عرف أن ذلك معصية موجبة للتوبة إلا بالعلم، وهل عُرفت شروط التوبة التي يقبلها الله إلا بالعلم، وهل أمكن التمييز بين الخواطر التي هي من الله، والخواطر التي هي من الشيطان إلا بالعلم، وهل عرف ما كان عليه أهل القدوة من الرجال إلا بالعلم؟

قال ابن الجوزي معلقاً على حال من ترك العلم بسبب عدم العمل:

«وهذا من خفي حيل إبليس، ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه، وإنما فعل وزيّنه عندهم لسببين:

أحدهما: أنه أرادهم يمشون في الظلمة.

والثاني: إن تصفح العلم كل يوم يزيد في العلم، ويكشف له ما كان خفي عنه، ويقوي إيمانه ويريه عيب كثير من مسالكه، إذا تصفح منهاج رسول الله ﷺ والصحابة. فأراد إبليس سد تلك الطرق بأخفى حيلة»[1]

---

(١) صيد الخاطر، ص٩٠

فلا يحملنَّك تقصيرك في العمل -أخي- على أن تترك العلم، بل تدارك التقصير في العمل، وانزِع عمَّا بان لك من الآفات بالتوبة، مع بقائك على العلم، وحسبك منه بركة أنه أوقفك على عيوبك.

يقول الشيخ الشعراني:

«لا يشترط في كون الإنسان عاملاً بعلمه، عدم وقوعه في معصية، كما يتبادر إلى الأذهان، وإنما الشرط عدم الإصرار على الذنب، أو عدم الإصرار على الإصرار، وهكذا»(١)

وينقل الشيخ الشعراني عن شيخه الخواص قوله:

«ما ثَمَّ عالم إلا هو يعمل بعلمه، ولو بوجه من الوجوه ما دام عقله حاضراً، وذلك أنه إذا عمل بالمأمورات الشرعية، واجتنب المنهيات، فقد عمل بعلمه بيقين، إذا رزقه الله الإخلاص فيه، وإن لم يعمل بعلمه كما ذكرنا، فيعرف بالعلم أنه خالف أمر الله، فيتوب ويندم، فقد عمل أيضاً بعلمه، لأنه لولا العلم لما اهتدى

---

(١) لواقح الأنوار القدسية، ص٢٧

لكون ترك العمل بالعلم معصية، وهذا معنى قول الثوري: كنا نطلب العلم للدنيا فجرَّنا للآخرة»[1]

فمن كان مبتلى بالإقبال على العلم، والانصراف عن العمل، ومن كان أكثر همه العناية بظاهر علمه، مع عدم التفتيش في باطنه، وعدم التحري في نيته، فهذا إن عرف أنه في معصية، وحمله علمه على المسارعة بالتوبة، فهو على خير كبير، وعلمه من العلم النافع، والحمد لله.

وإن أصرّ -مع ما هو فيه من آفات- على أنه صحيح الحال، سليم القصد، ثم مضى يخادع نفسه، ويخادع الناس، بأنه من أهل العلم، وورثة النبوة، وطلاب الآخرة، فيُخشى على مثل هذا، أن يكون ممن يمكر الله بهم، ويستدرجه من حيث لا يعلم.

(١) لواقح الأنوار القدسية، ص٢٧

والكلمة الأخيرة لأبي الوفاء[1]

هذا حديث لأبي الوفاء بن عقيل الحنبلي يعاتب به نفسه، فيحدثها حديثاً ما أحراني وإياك - أخي- أن ننوح به على أنفسنا

فتعال.

تعال نحاسب أنفسنا ونوبِّخها بلسان أبي الوفاء، قبل أن يأتي يوم يكون الحساب والتوبيخ فيه ممن لا قبل لنا بحسابه، ولا طاقة لنا باحتمال توبيخه.

يقول أبو الوفاء رحمه الله:

يا رعناء (يخاطب نفسه) تقوِّمين الألفاظ ليقال:

---

(١) سترد ترجمته، ص١٧٩

"مناظر ، وثمرة هذا أن يقال: "يا مناظر ، كما يقال للمصارع "الغارة"

ضيعتِ أعزَّ الأشياء وأنفسَها عند العقلاء، وهي أيام العمر، حتى شاع لك بين من يموت غداً اسم "مناظر

ثم يُنْسى الذاكر والمذكور إذا درست القبور.

أفٍّ لنفسي وقد سطرت عدة مجلدات في فنون العلوم، وما عبق بها فضيلة.

إن نوظرت شمخت، وإن نوصحت تعجرفت، وإن لاحت الدنيا طارت إليها طيران الرخم، وسقطت عليها سقوط الغراب على الجيف.

فليتها أخذت أخذ المضطر من الميتة.

توفر في المخالطة عيوباً تَبلى، ولا تحتشم نظر الحق إليها.

أفٍّ -والله- منّي اليوم على وجه الأرض، وغداً تحتها

والله إن نتن جسدي بعد ثلاث تحت التراب، أقل من نتن خلائقي وأنا بين الأصحاب.

والله إنني قد بهرني حلم هذا الكريم عني.

كيف يسترني وأنا أتهتَّك، ويجمعني وأنا أتشتت؟

وغداً يقال: "مات الحبر العالم الصالح"، ولو عرفوني حقّ معرفتي بنفسي ما دفنوني.

والله لأناديَنَّ على نفسي نداء المكشِّفين معائب الأعداء.

ولأنوحنَّ نوح الثاكلين للأبناء، إذ لا نائح لي ينوح عليّ لهذه المصائب المكتومة، والخلال المغطاة التي قد سترها من خبرها، وغطاها من علمها.

والله ما أجد لنفسي خلّة أستحسن أن أقول متوسلاً بها: اللهم اغفر لي كذا بكذا.

والله ما التفتّ قطّ، إلا وجدت منه -سبحانه- برّاً يكفيني، ووقاية تحميني مع تسلط الأعداء.

ولا عرضتْ حاجة، فمددت يدي، إلا قضاها، هذا فعله معي وهو ربّ غنيّ عنّي، وهذا فعلي وأنا عبد فقير إليه.

ولا عذر لي فأقول: ما دريت، أو سهوت.

والله لقد خلقني خلقاً صحيحاً سليماً، ونوّر قلبي بالفطنة، حتى إن الغائبات والمكتومات تنكشف لفهمي.

فواحسرتاه على عمر انقضى فيما لا يطابق الرضى.

واحرماني لمقامات الرجال الفطناء.

يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله وشماتة العدو بي.

واخيبة من أحسن الظن بي، إذا شهدت الجوارح علي.

واخذلاني عند إقامة الحجة.

سخر -والله- منّي الشيطان، وأنا الفطن.

اللهم توبةً خالصةً من هذه الأقذار، ونهضةً صادقةً لتصفية ما بقي من الأكدار.

وقد جئتك بعد الخمسين وأنا من خَلَق المتاع.

وأبى العلم إلا أن يأخذ بيدي إلى معدن الكرم، وليس لي وسيلة إلا التأسف والندم.

فوالله ما عصيتك جاهلاً بمقدار نعمك، ولا ناسياً لما أسلفت من كرمك، فاغفر لي سالف فعلي[1]

❖ من هو ابن عقيل؟

هو الإمام العلّامة، البحر، شيخ الإسلام، أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي، المقرئ الفقيه، الأصولي، الواعظ المتكلم، ولد سنة ٤٣١هـ، من أفاضل العالم، وأذكياء بني آدم، مفرط الذكاء، متسع الدائرة في العلوم، من مصنفاته كتاب (الفنون)، ولو قيل في هذا الكتاب إنه كان من الخوارق المعجزة، لما كان ذلك بعيداً، فقد قال الإمام الذهبي في تاريخه يصف ذلك الكتاب: «لم يُصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب. حدثني من رأى منه المجلد الفلاني بعد الأربع مئة في هذا الكتاب».

ومما يفسّر تلك القدرة النادرة على الإنتاج، ما كان يأخذ به نفسه -رحمه الله- من حفظ الوقت، قال صاحب (ذيل الحنابلة): «رأيتُ بخطه: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عُمري، حتى إذا تعطَّل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعةٍ، أعملتُ فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلّا وقد خطر لي ما أسطره. وإني لأجدُ من حرصي على العلم، وأنا في عشر الثمانين، أشدّ مما كنت أجدُه وأنا ابن عشرين سنة».

(١) صيد الخاطر، ص٣٨١

ونقل عنه الذهبي أيضاً قوله في كتاب الفنون: «قال حنبلي [هذا الحنبلي هو ابن عقيل ذاته، ولكنه كره أن يمتدح نفسه]: أنا أقصرُ بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سفّ الكعك وتحسيه بالماء على الخبزة؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ، توفراً على مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيه».

من أقواله: «لا يعظمْ عندكَ بَذْلُك نفسَك في ذاتِ الله، فهي التي بذلتَها بالأمس في حب مغنية، وهوى أمرد، وخاطرتَ بها في الأسفار لأجل زيادة الدنيا، فلما جئت إلى طاعة الله تعالى عظّمت ما بذلتَه؟».

توفي سنة (٥١٣هـ)، وقدر عدد من صلى عليه بثلاث مئة ألف، ودُفن في دكة قبر الإمام أحمد.

ترجمة مقتبسة من (ذيل طبقات الحنابلة) لابن رجب.

مستخلص

يعالج الكتاب موضوع العمل بالعلم، وتجويد العمل وتنقيته من الأهواء النفسية.

رجع المؤلف إلى النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ليستخلص منها المبادئ والأحكام التي يجب أن يتبعها كل من يعمل في مجال التعليم ، كما أوجز سير عدد من أعلام الحضارة الإسلامية ممن عرف عنهم الصلاح والإخلاص في العمل، والسعي الحثيث لطلب العلم، ليستمد من سلوكهم وأفعالهم وأقوالهم الخبرة لكيفية سلوك العالم العامل، من هؤلاء على سبيل المثال الشعراني، وطاووس بن كيسان، والإمام الغزالي، والإمام النووي، وابن الجوزي وسفيان الثوري وعلي زين العابدين وأبو سليمان الداراني، وابن عطاء السكندري، وأبو الحسن الشاذلي، ومحمد الشناوي، وبشر بن الحارث، و علي الخواص.. ومحمد بن واسع، وأبو علي الدقاق وغيرهم.

واستقرأ المؤلف من خلال مواقف هؤلاء الرجال وأعمالهم المزايا والخصال التي يجب أن يتمتع بها من يعلم العلم أو يتصدى للإرشاد والنصح مثل الزهد في الدنيا ، والتبصير بالدين، والمداومة على العبادة، والكف عن الوقوع في أعراض الناس، والعفة عن أموالهم، والنصح لجماعتهم، وحذر الكتاب من آفات، يجب أن يهرب منها المرء، لأنها كالمرض الخبيث تتسلل إلى النفس وتفسد العلم والعمل، منها عشق الشهرة، وطلب الجاه،وحب الظهور والتزيين بالألقاب، وارتقاء المنابر لجمع الناس، وتحصيل الوظائف، وجمع المال، وجذب الفضائيات والشاشات وغيرها، وإلا فكيف يكون العلماء ورثة الأنبياء.

Abstract

The book addresses the subject of putting science to practice, improving work and purifying it from psychological passions.

The author refers to the Qur'anic texts and Prophetic Hadiths in order to extract the principles and provisions that whoever works in the field of education should follow. He also outlines the biographies of a number of the figures of the Islamic civilization who are known for their righteousness and faithfulness in work and in striving to seek knowledge in order to gain experience from their behavior, actions and words about how a practical scholar should behave. Among those scholars are, for example, al-Sha'arani, Tawus bin Kisan, Imam Ghazali, Imam al-Nawawi, Ibn al-Jawzi, Sufian al-Thawri, Ali Zain al-Abidin, Abu Sulaiman al-Darani, Ibn Ata' al-Sakandri, Abu al-Hassan al-Shadhili, Muhammad al-Shinnawi, Bishr Ibn al-Harith, Ali al-Khawwas, Muhammad Ibn Wasi', Abu Ali al-Daqqaq and others.

Through the positions and works of these figures, the author derives the qualities and attributes that should be enjoyed by the one who is experienced in knowledge or undertakes guidance and advice, such as asceticism in this world, drawing attention to religion, maintaining worship, refraining from touching people's honor, abstinence from others' money and advice to their community.

The book warns of ailments that the human should escape, because they are the like of a malignant illness that sneaks to the soul and spoils knowledge and deed, including the love of fame, demanding prestige, the love of appearance, decking with titles, ascending tribunes for gathering people, obtaining jobs, collecting money, and the attraction of space channels, screens and the like; or else how could scholars be heirs of prophets?

SEEKERS OF WORK RATHER THAN KNOWLEDGE

Ṭullāb 'Amal lā Ṭullāb 'Ilm

Dr. Muḥammad al-Khiyamī

طلاب عمل لا طلاب علم

يقدم الكتاب تصور علماء الأمة للعالم الفاضل كيف تكون أخلاقه؟ وكيف تكون معاملاته؟ ما الصفات التي يجب أن يتمتع بها؟ وما المزايا التي يجب أن يتحلى بها؟ كيف كان سلفنا الصالح وعلماؤنا يتصرفون مع مريديهم وطلابهم، مع أمراءهم وحكامهم، مع عامة الناس؟

هل العلم الذي يتمتع به الفرد يقوده إلى التكبر والاستعلاء على الناس؟ ما أهمية العمل في حياة المسلم؟ وما فضل العمل على العلم؟

الكتاب يبحث في هذه الخصائص ويحاول أن يقدم لنا عبر سير العديد من عظماء الإسلام خلقاً وعلماً، ومنهجاً يقتدي به طلاب العلم والدعاة والعلماء، من أبناء هذه الأمة


ISBN 978-9933-10-536-5

